المملكة العربية السعودية

جامعة جدة

كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

قسم الدراسات الإسلامية

تحقيق التوحيد في زمن الأوبئة (التوكل أنموذجاً)

أ.د: عفاف بنت حسن بن محمد مختار الهاشمي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

فإن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته وتوحيده، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ويقول الرسول ﷺ لمعاذ – رضي الله عنه –: (أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)(١)، وقضى الله ﷻ على خلقه بالقضاء الكوني والقضاء الشرعي، حتى يتضح المؤمن من الكافر، والسعيد من الشقي، والصالح من الطالح، ومن جملة القضاء الكوني خلق الأوبئة والأمراض والمصائب من باب الابتلاء والامتحان للعباد، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٧]، فالله ﷻ جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان كما قال ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وبما أن العباد مختلفون فمنهم الطائع ومنهم العاصي، ومنهم من يستسلم للأوامر والنواهي ومنهم من يعارض وخاصة عند نزول المصائب والبلايا، حيث نجد أن بعض العباد يعتقدون بمعتقدات بدعية وخرافات وترهات زاعمين بذلك أنها تخلصهم مما هم فيه، ولما كانت طبيعة العبد تقتضي البحث عن الحق والحقيقة لكونه مفطوراً على الفطرة السوية كما قال الله ﷻ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣١]، وقال الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(٢)، ولذا فقد أرسل الله ﷻ الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام لتوضيح الحق من الباطل، والنور من الظلمات، والهدى من الضلال، ولذا يجب على العبد أن يحقق التوحيد لله ﷻ في الرخاء والشدة، وفي الصحة والمرض، وفي الصغر والكبر، وفي السر والعلن حتى ينال شرف العبودية لله ﷻ، فتوضيح الحق وبيانه من أجَّل ما يتنافس فيه المتنافسون وأفضل ما يتسابق إليه المتسابقون،

---

(١) البخاري في كتاب العلم – باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا (٣/ ١٢٨).

(٢) البخاري في كتاب الجنائز – باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/ ١٩٢ – ١٩٩)، ومسلم في كتاب القدر – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (١٦/ ٢٠٧ – ٢١٠).

وأحق ما يشتغل به طلبة العلم والباحثون، ومن هذا المنطلق شرَّعت في الكتابة في هذا الموضوع (تحقيق التوحيد في زمن الأوبئة – التوكل أنموذجاً) سائله المولى ﷻ أن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه وبالله التوفيق.

أسباب اختيار الموضوع:

١. بيان أن الأمة الإسلامية تمر الآن بأحرج الأوقات وأصعبها، والرجوع إلى التوحيد وتحقيقه من الأمور التي تساعد على تسهيل هذا الأمر.

٢. أهمية المحافظة على تحقيق التوحيد لله ﷻ وخاصة عند نزول البلايا والأوبئة.

٣. كثرة البدع والخرافات المحاكة التي تُدبر لإبعاد العباد عن العبادة الصحيحة.

٤. كثرة الخوض في هذا الوقت مع الضجة المطروحة في الساحة لتعميق الهوة بين الحق والباطل حتى لا يتضح مذهب الحق.

٥. وقوع الانحراف عند بعض العباد في باب التوكل على الله ﷻ .

أهداف البحث:

١. التعرف على أهمية توحيد الله ﷻ .

٢. تسليط الضوء على بعض أفكار المناوئين للعبادة الصحيحة، ومنها عبادة التوكل على الله ﷻ .

٣. بيان أهمية التوكل على الله ﷻ في التعامل مع الأوبئة والمصائب.

٤. توضيح الجوانب الأساسية لمذهب أهل السنة والجماعة في عبادة التوكل.

منهج البحث:

اتبعت في إعداد هذا البحث المنهج الآتي:

١. الاعتماد بعد التوكل على الله ﷻ على المنهج الاستقرائي قدر الاستطاعة في جمع المادة العلمية مع المنهج الموضوعي لملاءمته لمفردات البحث.

٢. توضيح عقيدة أهل السنة والجماعة حتى يظهر نقاؤها.

٣. مناقشة الأقوال إذا احتاج الأمر ذلك.

٤. توضيح عقيدة أهل السنة والجماعة حتى يظهر نقاؤها.

٥. إذا كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، أو من أحدهما، إذ المقصود معرفة صحته، أما إذا كان في غيرهما فقد أذكر أكثر من مصدر، على حسب الاستطاعة.
٦. عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها.
٧. عزو الحديث يكون بالكتاب والباب والجزء والصفحة، أو رقم الحديث على حسب المصدر المنقول منه.
٨. شرح ما دعت إليه الحاجة من الألفاظ الغريبة.
٩. عند تغيير الطبعة المعتمدة أشير إلى ذلك في الحاشية.
١٠. قد أذكر المعلومة أكثر من مرة إذا احتاج الأمر.
١١. إذا تشابه اسم الكتاب مع غيره فأذكر اسم المؤلف.
١٢. ذكر بيانات المصدر أو المرجع كاملة في فهرس المصادر والمراجع (اسم الكتاب – اسم المحقق أو المصحح أو المعلق أو المقدم إن وجد – دار النشر– بلد النشر– رقم الطبعة– تاريخ الطبعة) وإذا لم توجد جميع هذه المعلومات فالاكتفاء بما وجد.
١٣. تذييل البحث بفهرس المصادر والمراجع والموضوعات.

محتويات البحث:

يحتوي البحث على تمهيد ومبحثين وخاتمة.

التمهيد ويتضمن تعريف التوحيد والأوبئة.

المبحث الأول: التوكل مفهومه وأنواعه ومواطنه وفوائده ومفاهيم خاطئة وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التوكل في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: أنواع التوكل.

المطلب الثالث: الفرق بين التوكل والتواكل.

المطب الرابع: الفرق بين التوكل والتفويض.

المطلب الخامس: مواطن التوكل.

المطلب السادس: فوائد التوكل في القضاء على الأوبئة.

المطلب السابع: مفاهيم خاطئة حول التوكل.

المبحث الثاني: التوكل من صفات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والمؤمنين مع الأخذ بالأسباب وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التوكل من صفات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والمؤمنين.

المطلب الثاني: الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد ويحتوي على تعريف التوحيد والأوبئة:

تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح:

التوحيد في اللغة: مصدر الفعل وحد من الوحدة، وهي الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البته، ثم أُطلق على كل موجود حتى أنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، والف واحد، والفرق بين الواحد والأحد: أن الأحد بُني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحد اسم بُني لافتتاح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد، فالواحد متفرد بالذات في عدم المثيل والنظير،[١] والأحد المتفرد بالمعنى، وقيل: الواحد الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له ولا مثيل،[٢] ولا يجتمع هذان الوصفان إلا لله ﷻ، والتوحيد على وزن التفعيل وهو مصدر وحدته توحيداً، والمعنى جعلته متفرداً عما يشاركه أو يشابهه في ذاته وصفاته، والتشديد فيه للمبالغة: أي بالغت في وصفه بذلك، تقول العرب: واحد وأحد ووحد ووحيد أي: متفرد، فالله ﷻ واحد: أي تفرد عن الأنداد والأمثال في جميع الأحوال[٣]، فمادة وحد تدور حول انفراد الشيء بذاته أو صفاته أو أفعاله، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه[٤].

التوحيد في الاصطلاح:

عُرف التوحيد في الاصطلاح بعدد من التعاريف منها:

---

(١) تهذيب اللغة (٥ / ١٩٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥ / ١٥٩) وتهذيب اللغة (٥ / ١٩٥).

(٣) لسان العرب (٣ / ٤٥١).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠ – ٩١)، والصحاح (٥٤٨/٢)، والقاموس المحيط (٣٤٣/١)، والحجة في بيان المحجة – تحقيق المدخلي (٣٠٥/١ – ٣٠٦)، ولوامع الأنوار (١/١–١٠).

١. هو إفراد الله ﷻ بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

٢. هو إفراد الله ﷻ بالربوبية والطاعة أو العبادة، ويشمل ذلك أنواع التوحيد الثلاثة الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، وهي متلازمة مترابطة لا يصح إيمان المرء ولا توحيده مالم يأت بها كاملة، فالله ﷻ المتفرد بالخلق والإحياء والإماتة والتدبير، وله صفات الكمال والعظمة والجلال فهو المتفرد كذلك بالأمر والنهي والطاعة[١].

٣. إن الله ﷻ واحد لا من طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له، ولا يشبهه شيء من خلقه، ولم يزل بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية[٢].

٤. إنه علم يبحث عن وجود الله، وما يجب[٣] أن يُنسب له من صفاته وما يجوز[٤] أن يوصف به، وما يجب أن يُنفى عنه، ويبحث عن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن يُنسب إليهم، وما يمتنع أن يُلحق بهم[٥].

٥. إنه واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وخالق لمصنوعاته[٦].

٦. هو إثبات الوحدة لله في الذات، والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد[٧].

٧. هو نفي التقسيم لذاته، ونفي التشبيه في حقه وصفاته، ونفي الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته[٨].

والذي أراه أن التعريفين الأول والثاني هما تعريفان صحيحان للتوحيد، لأن العبد إذا أفرد الله ﷻ بالربوبية فتيقن بأن الله هو الرازق، والنافع، والمحي، والمميت، بيده كل شيء، ثم عبده بالإخلاص والمتابعة، مع اعتقاده الجازم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، مع قيامه بما تضمنتها تلك الأسماء والصفات صار موحداً لله ﷻ.

أما التعريف الثالث: وإن كان منسوباً للإمام أبي حنيفة – يرحمه الله –، فالراجح أن هذا التعريف لم يقل به، فالتعريف بيَّن أن الله ﷻ واحد لا عن طريق العدد، ولكن من طريق أنه لا شريك له، والواحد من أسماء الله ﷻ يُراد به معنيان على الوجه

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/٨)، والتحفة المهدية (٢٥٩)، وفتح رب البرية (٥٤ – ٥٥).

(٢) يُنسب هذا التعريف للإمام أبي حنيفة يرحمه الله في كتاب الفقه الأكبر. انظر الفقه الأكبر بشرح علي القارىء (١٣)

(٣) الواجب: الواجب لذاته هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً، وليس الوجود له من غيره، بل من نفس ذاته، فإن كان وجوب الوجود لذاته يُسمى واجباً لذاته، وإن كان لغيره يُسمى واجباً لغيره، ويقصد الفلاسفة بواجب الوجود هو الذي يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج إلى شيء أصلاً. انظر التعريفات (٣٩٩) ، والفتاوى (٢/ ٢٩٥) ، ومعجم ألفاظ العقيدة (٤٢٥)

(٤) الجائز: جائز الوجود أو ممكن الوجود: هو ما يقبل العقل إمكان وجوده وعدمه ولو حتى في حالة من الحالات التي يتصورها الذهن وضمن شروط معينة، وطبق أنظمة معينة خاصة، ومثاله نحن البشر موجودون على سطح الأرض بشكل واقعي، ولكن العقل يرى أنه كان من الممكن ألا نكون موجودين، وهو مصطلح يقول به الفلاسفة ومن تبعهم من المعتزلة. انظر التعريفات (٣٩٩) ، العقيدة الإسلامية وأسسها (٦٥ – ٦٦) ، ومعجم ألفاظ العقيدة (١١٧).

(٥) رسالة التوحيد لمحمد عبده (٥-٨)، ولوامع الأنوار (١/ ٥٧).

(٦) ضوء المعالي (١٣).

(٧) رسالة التوحيد لمحمد عبده (٥-٨).

(٨) إرشاد الساري (١٠/٣٥٧).

الصحيح: المعنى الأول: هو الفرد الذي لا ثاني له، وهذا من ناحية العدد، يقول الطبري - يرحمه الله — في تفسير قول الله ﷻ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] (الواحد الذي لا ثاني له)[١].

والمعنى الثاني: أن الواحد هو الذي لا شريك له ولا مثيل له ولا شبيه، يقول الطبري — يرحمه الله— في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] (والواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والواحد الذي لا مثيل له ولا شبيه)[٢].

فمما تقدم يظهر أن الواحد من أسماء الله ﷻ يراد به معنيان: فمن ناحية العدد: فالله واحد لا ثاني له، ومن ناحية المثلية والمشاركة فالله واحد لا مثيل له ولا شريك[٣]، أما التعريف المنقول من كتاب الفقه الأكبر، فإنه يظهر فيه قصر معنى الواحد على معنى أنه لا شريك له فحسب ونفى أن يكون واحداً من ناحية العدد وهو الذي لا ثاني له، وهذا خلاف معنى الواحد لغة وشرعاً، ويستحيل أن يكون أبو حنيفة- يرحمه الله— وهو إمام من أئمة أهل السنة والجماعة ممن له باع طويل في اللغة العربية أن يجهل تلك المعاني، ومما يؤكد أن هذا التعريف لم يقُل به أبو حنيفة — يرحمه الله— أن التعريف قد قسم صفات الله ﷻ إلى قسمين: ذاتية وفعلية، والمدقق في كلام السلف الصالح في الصفات خلال الفترة التي عاش فيها أبو حنيفة — يرحمه الله — والفترة السابقة له، بل والتي تليه أيضاً لا يجد أثراً لوجود هذا التقسيم للصفات إلى ذاتية وفعلية، بل كان أئمة أهل السنة والجماعة في القرنين الأول والثاني يتكلمون في إثبات الصفات من باب واحد، وإنما هذا التقسيم حدث بعد ذلك لما ظهرت تعمقات المتكلمين، والفلاسفة، ومما يدل أن هذا التعريف لا ينسب إليه صراحة، أن الشيخ ابن عثيمين — يرحمه الله — ذكر أن التعريف ينسب إلى المتكلمين فقال: (وبعض المتكلمين قالوا: التوحيد أن تؤمن أن الله واحد في أفعاله لا شريك له)[٤] ولذا فإن الراجح أن الرسالة التي تنسب إلى أبي حنيفة — يرحمه الله — بمسمى الفقه الأكبر ليست من تأليفه وذلك لعدد من الأسباب منها:

١. الطعن في السند من بدايته إلى نهايته.
٢. ركاكة العبارات وعدم التناسق بينها.
٣. خلو الرسالة من أي أدلة تفصيلية من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) جامع البيان (١٢/١٢٩-١٣٥).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر كتاب التوحيد لمختار (١٥).

(٤) شرح لمعة الاعتقاد (١٣٠).

٤. اشتمال الرسالة على ما ليس له علاقة بأصول الدين ومسائل الاعتقاد.

٥. تضمن الرسالة لمسائل تخالف معتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات والقرآن الكريم، بل توافق أقوال ومعتقدات الجهمية.

فالناظر المدقق في تلك الرسالة يجدها تحتوي على عدد من المسائل الغريبة على منهج أهل السنة والجماعة في الاعتقاد، فهل يعقل أن تكون من تأليف إمام عظيم من الإئمة المتقدمين الذين أدركوا بعض الصحابة وكبار التابعين؟[١] وأما التعريف الرابع فهو منسوب إلى المتكلمين، وليس لأهل السنة والجماعة، فأهل السنة الجماعة لا يدينون إلا بما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين، لأن الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة هو ما كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، أما قول المتكلمين: ما يجب على الله ورسوله وما يجوز وما يستحيل فهي مصطلحات جاء بها المتكلمون ويستدلون بها على التوحيد، وهي طريقة خاطئة لم يقل بها الصحابة – رضي الله عنهم – ولا من خلفهم من أهل السنة والجماعة، فالعقل البشري الضعيف ليس من حقه أن يوجب أو يجيز أو يحيل شيئاً على الله ﷻ ورسله، بل إن تلك الأمور متعلقة بالوحي من القرآن والسنة، ولا شأن للعقل بالتجرؤ عليها. أما التعاريف الثلاثة الأخيرة فقد قال بها المتكلمون الذين لم يتعرضوا لتوحيد الألوهية وقد فسروه بتوحيد الربوبية، فظنوا أنه هو المطلوب من العباد، وأن معنى لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله أو لا قادر على الاختراع إلا الله، فافنوا أعمارهم بما لم ينازع فيه المشركون، لكن لم ينفعهم ذلك ولم يدخلهم الإسلام، ومعلوم أن المقصد الأعظم الذي أُرسل لأجله الرسل وأُنزلت الكتب، وخُلق له الجن والإنس هو عبادة الله وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

تعريف الأوبئة في اللغة والاصطلاح:

الأوبئة في اللغة: جمع وباء، والوباء بالمد والقصر وجمع الممدود أوبئة وجمع المقصور أوباء[٢]، وأرض وبئة إذا كثر مرضها وقد استوبأتها وقد وبُؤَت (توبؤُ) وباءة إذا كثرت أمراضها[٣]، والوباء بالقصر والمد والهمز: الطاعون، والمرض العام[٤]، ويقول ابن منظور – يرحمه الله –: (وبأ الوبأُ الطاعون بالقصر والمد والهمز، وقيل هو كل مرض عام[٥]، وخلاصة القول: إن أهل اللغة اختلفوا في معناه لغة: تارة أنه اسم للمرض العام، وتارة اسم للطاعون، وثالثة أنه يُطلق عليهما معاً أي أن الوباء: اسم للطاعون واسم لكل مرض عام.

---

(١) براءة الأئمة الأربعة (٦٦).

(٢) انظر المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٥٦٦)، ومختار الصحاح (٣٣٢)، لسان العرب (١/ ١٨٩).

(٣) العين (٨/ ٤١٨)

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٤٤).

(٥) لسان العرب (١/ ١٨٩).

الوباء اصطلاحاً: اسم لكل مرض عام[1].

والذي يظهر أنه لا فرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فالوباء مرض عام يصيب الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من الأمراض في الكثرة وغيرها، ويكون نوعاً واحداً[2]، على أن تسمية الطاعون وباء لا يلزم فيه أن كل وباء طاعون، بل يدل على عكسه، وهو أن كل طاعون وباء، لكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثرة الموت، وكان الطاعون أيضاً كذلك، أُطلق عليه اسمه[3]، وفي ذلك يقول القاضي عياض – يرحمه الله –: (أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء: عموم الأمراض، فسميت طاعوناً لشبهها بالهلاك بذلك، وإلا فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً)[4].

ومن هنا رجح الحافظ ابن حجر – يرحمه الله – أن الوباء غير الطاعون، وأنه لا يطلق عليه إلا مجازاً واستدل على ذلك بأمور منها أن الوباء يدخل المدينة المنورة بخلاف الطاعون، وقد قال – يرحمه الله – في باب الدعاء برفع الوباء والوجع: (أي يرفع المرض عمن نزل به سواء كان عاماً او خاصاً وقد تقدم بيان الوباء وتفسيره في باب ما يذكر في الطاعون، وأن حقيقته مرض عام ينشأ عن فساد الهواء وقد يسمى طاعوناً بطريق المجاز، وأوضحت أن هناك الرد على من زعم أن الطاعون والوباء مترادفان بما ثبت هناك أن الطاعون لا يدخل المدينة، وأن الوباء وقع بالمدينة كما في قصة العرينين، وكما في حديث أبي الأسود أنه كان عند عمر فوقع بالمدينة بالناس موت ذريع)[5].

ومن هنا يتبين أن الوباء غير الطاعون، بل هو أعم منه، وإن أخذ حكمه إقداماً وإحجاماً.

المبحث الأول: التوكل مفهومه وأنواعه ومواطنه وفوائده ومفاهيم خاطئة وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التوكل في اللغة والاصطلاح:

تعريف التوكل في اللغة: التوكل مصدر توكل يتوكل وهو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما، ومن ذلك التوكلُ وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان: إذا ضيَّع أمره متكلاً على غيره، والوكال في الدابة: أن يسير بسير الآخر، والتوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، وتواكل القوم: إذا أتكل على الآخر،

---

(١) انظر حاشية ابن عابدين (٣/ ٦٩)، شرح مختصر خليل للخرشي (٥/ ١٣٣)، أسنى المطالب (٣/ ٣٨).

(٢) انظر شرح مختصر خليل للخرشي (١٣٣/٥)، مقال بعنوان القنوت للوباء والطاعون – أحمد الزومان – شبكة الألوكة.

(٣) بذل الماعون في فضل الطاعون (١٠٤).

(٤) إكمال العلم بفوائد مسلم (٧/ ١٣٢).

(٥) فتح الباري (١١/ ١٨٠).

والاسم من التوكيل الوكالة (بالفتح والكسر، والاسم التكلان، ويقال اتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته، ويقال: فلان وكله أو تكله أي: عاجز يكل أمره إلى غيره، كما يقال: فرس واكل يعني يتكل على صاحبه في العدو، ويحتاج إلى الضرب، والمتوكل على الله: الذي علم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده، ولا يتوكل على غيره، قال ابن سيدة: يُقال: وكل بالله وتوكل عليه واتكل بمعنى استسلم إليه، وتوكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي: ألجاته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه، ووكل إليه الأمر سلمه، ووكله إلى رأيه وكلاً ووكولاً أي تركه)[١]، فالتوكل في اللغة يدور حول: الاعتماد، وإظهار العجز والضياع، والنيابة، والركون، والاستسلام، والقيام بالأمر.

التوكل في الاصطلاح: عُرِّف التوكل في الاصطلاح بعدد من التعاريف منها:

١. (هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والنفع والضر، فيوجب له اعتماداً عليه، وتفويض الأمور إليه، وطمأنينة وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه)[٢].
٢. عرَّفه الإمام أحمد – يرحمه الله –: (وجملة التوكل: تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به)[٣].
٣. وعرَّفه ابن رجب الحنبلي – يرحمه الله –: (بأنه صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة)[٤].
٤. وعرَّفه ابن القيم – يرحمه الله –: (بأنه اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب)[٥].
٥. وعرّفه ابن حجر – يرحمه الله –: (هو قطع النظر عن الأسباب، بعد تهيئة الأسباب)[٦].
٦. وعرَّفه الجرجاني – يرحمه الله –: (بأنه الثقة بما عند الله واليأس بما في أيدي الناس)[٧].

وجميع هذه التعاريف يؤخذ بها في المعنى الاصطلاحي حيث إنه قد اختلفت العبارات في التعريف بالتوكل على الله ﷻ، فمنهم من فسره بلازمه، ومنهم من فسره بأسبابه ودواعيه، ومنهم من نظر إلى ثمرته، وهو من اختلاف التنوع لا التضاد.

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٣٦)، الصحاح (٥/ ١٨٤٥) ، لسان العرب (٨/ ٤٩٠٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٢١) ط دار الكتب العلمية.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣ – ١٢٤) ط دار الكتب العلمية ط١، التوكل لعبد الله الدميجيي (٢٠).
(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٥٧) ط دار الكتب العلمية ط١ – ١٤١٠هـ، زاد المسير (٢٢٠).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٥٦).
(٥) زاد المعاد (٤/ ١٥) ط مؤسسة الرسالة ط٧.
(٦) فتح الباري (٣/ ٤٤٩).
(٧) التعريفات (٧٤).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: لما كان التوكل في اللغة يُطلق على التسليم والنيابة والركون، أُطلق في الاصطلاح بهذا المعنى، إلا أن ذلك خُص بالتسليم لله ﷻ والاعتماد عليه والركون إليه دون غيره، لتفرده ﷻ بالخلق والتدبير، وقدرته على كل شيء، فالتوكل على الله وصدق الاعتماد على الله ﷻ، وصدق الاعتماد أن يعتمد على الله اعتماداً صادقاً بحيث لا يسأل إلا الله، ولا يستعين إلا بالله، ولا يرجو إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ويعتمد على الله بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به وفعل السبب الذي أذن به بحيث يكون العبد واثقاً بدون تردد مع فعل السبب الذي أذن فيه الشارع، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة فهم يتوكلون على الله ﷻ ويثقون به، ويقومون بفعل الأسباب المشروعة وبذلك يتضح بطلان بعض تعاريف أهل الأهواء والبدع الذين يعرّفون التوكل على الله بتعاريف باطلة مثل قولهم: التوكل على الله: (انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء، وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار أو خلع الأرباب وقطع الأسباب)[1]، وهذا التعريف تعريف باطل، حيث إن الإجماع على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد، فترك الأسباب المأمور بها قادح في التوكل، فهؤلاء لم يفرقوا بين المشيئة والإرادة، فقد زعم المعتزلة والأشاعرة والجهمية والصوفية أن المشيئة والإرادة بمعنى المحبة والرضا، والصحيح أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: إرادة كونية وهي التي بمعنى المشيئة وهذه الإرادة لا تستلزم محبة المراد ولا الرضى به، فالله ﷻ يريد الكفر كوناً ولا يرضاه شرعاً، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، القسم الثاني: إرادة شرعية وهذه تستلزم المحبة والرضا[2].

وبذلك يتضح أن الأوبئة والأمراض والمصائب تدخل تحت الإرادة الكونية التي لا تستلزم محبة الله ﷻ، ولذلك يجب على العبد أن يتوكل على الله ﷻ، وأن يقوم بالأسباب المشروعة التي يدفع بها الأوبئة والأمراض، مع ثقته وتوكله على الله ﷻ، وهذا من تمام التوكل على الله، فنفاة الأسباب لا يستقيم لهم التوكل أبداً، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به.

المطلب الثاني: أنواع التوكل:

التوكل على ﷻ من أعظم مقامات الدين ولوازم الإيمان ومقتضياته، كما قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] كما جعل الله التوكل عليه شعاراً لأهل الإيمان يتميزون به عن غيرهم، فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ومما يدل على منزلة التوكل

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٥ – ١١٦) ط دار الكتاب العربي ط١ – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨٨/٨ – ٢٥٧)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٧٩ – ٨٠).

على الله ﷻ من دين الإسلام أن الله ﷻ جعله شرطاً للإيمان لا يتحقق إلا به يقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ولكن لابد أن يكون التوكل على الله توكلاً صحيحاً مبنياً على الكتاب والسنة، فهناك توكل صحيح وتوكل خاطئ ولذلك فإن للتوكل أنواعاً[١]:

الأول: التوكل على الله ﷻ وهو تمام الإيمان وعلامات صدقه وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به، يقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، فالتوكل على الله ﷻ هو شطر الدين كما قال الله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والاستعانة بالله ﷻ هي ثمرة التوكل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فالمتوكل على الله واثق بالله، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (الثقة سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، قال الله ﷻ عن أم موسى ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله ﷻ إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها في تيار... والمراد أن الثقة خلاصة التوكل ولبُه، كما أن سواد العين أشرف ما فيها)[٢].

الثاني: توكل السر بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة، أو دفع مضرة، فهذا شرك أكبر، لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفاً سرياً في الكون، ولا فرق بين أن يكون نبياً أو ولياً، أو طاغوتاً عدواً لله ﷻ، وهذا النوع من الشرك الأكبر لأن المتوكل فيه يتوكل على غيره توكل اعتماد وتعبد، فيعتقد أن هذا المتوكل عليه هو الذي يجلب له كل خير، ويدفع عنه كل شر، فيفوض أمره إليه تفويضاً كاملاً في جلب المنافع ودفع المضار، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حياً أو ميتاً، لأن هذا التفويض لا يصح إلا لله، يقول ابن تيمية – يرحمه الله –: (فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستعانة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً، ولا أنزل به كتاباً، وليس واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد، ويذكرون فيه حكايات ومنامات، فهذا كله من الشيطان)[٣].

---

(١) المجموع للنووي (٥/ ١٩٦)، تحفة المحتاج (٣/ ١٨٢)، حاشية ابن عابدين (٢١٥ – ٢٤٩)، مجموع فتاوى ابن عثيمين (٦/ ٥٤)، التوكل للدميجي (١٥٤)، تيسير العزيز الحميد (٤٩٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٩ – ١٦١).

الثالث: التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل عنه مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش ونحوه، فهذا نوع من الشرك الأصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه، أما لو اعتمد عليه على أنه سبب، وأن الله ﷻ هو الذي قدر ذلك على يده، فإن ذلك لا بأس به، وأن كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله(١).

الرابع: التوكل على الغير فيما يتصرف فيه المتوكل بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة، فهذا لا باس به بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، فقد قال يعقوب ﷺ لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ووكل الرسول ﷺ على الصدقة عمالاً وحفاظاً، ووكل في إثبات الحدود وإقامتها، ووكل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في هديه في حجة الوداع أن يتصدق بجلودها وجلالها(٢)، وأن ينحر ما بقي من المائة بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثاً وستين، أما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة(٣)، وبذلك يتضح أن أقسام التوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً، مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله ﷻ، ومن صرفه لغير الله، فهو مشرك شركاً أكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار(٤).

الثاني: الاعتماد على الشخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفة في حصول رزقه، ولهذا نجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فيجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب(٥).

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه، لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبي ﷺ عدداً من الصحابة في أمور مختلفة، وهذا التوكل بخلاف القسم الثاني لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المتوكل عليه اعتماد افتقار، وبعض العلماء قسم التوكل إلى قسمين: أحدهما توكل عليه في تحصيل العبد الرزق والعافية وغيرها، الثاني: توكل عليه في تحصيل طاعته ومرضاته ﷻ، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (التوكل على الله نوعان: أحدهما توكل عليه في تحصيل حظ العبد من

(١) شرح العقيدة الواسطية (١٨٥ – ١٨٦).

(٢) الجلالة: هي العظم، أو جل الذنب، المنجد في اللغة العربية المعاصرة (٢١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٣ – ٤٣٤)، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (٢٢٣)، رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لابن تيمية (٦٢ ٦٣).

(٤) شرح العقيدة الواسطية (١٨٥ – ١٨٦)، فتاوى العقيدة (٦/ ٥٤ – ٥٥)، القول المفيد (٨٩ – ٩٠)، تفسير سورة المائدة (١٦٧).

(٥) طريق الهجرتين (٢٦٢) ط دار الوطن.

الرزق والعافية وغيرها، والثاني: توكل عليه في تحصيل مرضاته، فأما النوع الأول فغايته المطلوبة وإن لم تكن عبادة لأنها محض حظ العبد، فالتوكل على الله في حصوله عبادة فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه، وأما النوع الثاني: فغايته عبادة وهو في نفسه عبادة فلا علة فيه بوجه، فإنه استعانة بالله على ما يرضيه، فصاحبه متحقق ب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فتركه ترك لشطر الإيمان)[١]،

المطلب الثالث: الفرق بين التوكل والتواكل:

إن الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النجاح والتوفيق لله ﷻ، والثقة بأنه ﷻ لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، هو من التوكل المأمور به، أما القعود عن الأسباب وعدم السعي فليس من التوكل في شيء، إنما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه الرسول ﷺ ونهى عن الأسباب المؤدية إليه، ومصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : (يا معاذ تدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قال معاذ: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)[٢]، فهنا يضع الرسول ﷺ قاعدة جليلة هي أن كل ما يؤدي إلى ترك العمل أو ما يكون مظنة للاتكال، أو التواكل ليس من التوكل في شيء، وقد جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – ما يؤيد هذه الحقيقة، ففي الحوار الذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – عن المصطفى ﷺ وعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – هذا الحوار: (قال عمر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: نعم، قال عمر: فلا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلّهم يعملون، قال رسول الله ﷺ: فخلّهم)[٣]، ويفهم من الحديث والذي قبله أن الاتكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وأن ذلك ليس من التوكل في شيء.

وبذلك يتضح أن التوكل الحقيقي عند نزول الجوائح والأوبئة أن يقوم العبد بكل الأسباب المؤدية إلى الوقاية منها، مع البحث عن الشفاء والعلاج مما يصيبه، ومن هنا يظهر خطأ الصوفية الذين يذهبون إلى أن التوكل لا يتحقق إلا بالإعراض التام عن الأسباب ونحو ذلك، وقد جرهم ذلك إلى ترك الكسب والسفر إلى مكة وغيرها بلا زاد ولا راحلة ونحو ذلك، وقد أشار ابن الجوزي – يرحمه الله – إلى قولهم في الأسباب وما تعللوا به من الشبه، وأجاب عنها ومما ذكره في هذا المقام قوله: (لو قال رجل من الصوفية من أين أطعم عيالي؟ لقالوا: لقد أشركت ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل ولا مؤمن، وكل

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) سبق تخرجه.

(٣) مسلم كتاب الإيمان – باب من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٦٠ – ٦١).

هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين)[1]، بل يتجاوز بعض أهل الأهواء والبدع في عدم الأخذ بالأسباب في حال الأمراض، ويستدلون بالحديث المتفق عليه الذي يقول الرسول ﷺ فيه: (عُرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر مع النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: لم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم)[2]، والحديث ضدهم وليس لهم لأن قول الرسول ﷺ (وعلى ربهم يتوكلون) هو الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه والاعتقاد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد، الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والرجاء والخوف والرضا به رباً وإلهاً والرضا بقضائه[3]، يقول ابن حجر – يرحمه الله –: (والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب إتباعاً لسنته وسنة رسوله ﷺ، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وأدخَّر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وكان هو أحق الخلق أن يحصل له ذلك)[4]، ومن هنا يتضح من الحديث – أن الاعتقاد بعدم محاولة العلاج وطلب الدواء ينافي كمال تحقيق التوحيد والتوكل الصحيح – بل هذا خلاف السنة النبوية، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: (كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين)[5] ، فالأحاديث التي وضحت أن سبعين ألفاً من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لا يسترقون فقد يظن أحد أن هذا الحديث مخالف للأمر والواقع أنه لا يوجد أي خلاف، يقول النووي – يرحمه الله –: (فالمدح في ترك الرقى المراد بها الرقى التي هي من كلام الكفار والرقى المجهولة والرقى بغير العربية ومالا يعرف معناها فهذه مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه، وأما الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة، ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح في ترك الرقى للأفضلية وبيان التوكل والذي فعل الرقى وأذن فيها لبيان الجواز مع أن تركها أفضل، وبهذا قال ابن عبد البر وحكاه عمن حكاه، والمختار الأول وقد نقلوا الإجماع على جواز الرقى بآيات وأذكار الله ﷻ وقال المازري: (جميع الرقى جائزة إذا كانت بكتاب الله أو بذكره ومنهيُ عنها إذا كانت باللغة

---

(١) تلبيس إبليس (٣٣٦) ط دار الريان.

(٢) البخاري في كتاب الرقاق – باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٨/ ١١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عقاب (١/ ١٩٨).

(٣) فتح المجيد (٦٨).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٥٥٢ – ٢٥٥٣).

(٥) مسلم كتاب السلام – باب الطب والرقي (١٤/ ١٤١– ١٤٢).

العجمية أو بما لا يُدرى معناه لجواز أن يكون فيه كفر، وقال: واختلفوا في رقية أهل الكتاب فجوزها أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وكرهها مالك خوفاً أن يكون مما بدلوه، ومن جوزها قال: الظاهر أنهم لم يبدلوا الرقى فإنهم لهم غرض في ذلك بخلاف غيرها مما بدلوه، وقد ذكر مسلم بعد هذا أن النبي ﷺ قال: (اعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شيء)[1]، وأما قوله في الرواية الأخرى: يا رسول الله إنك نهيت عن الرقى فأجاب العلماء عنه بأجوبة: أحدها كان نهى أولاً ثم نسخ ذلك وأذن فيها وفعلها واستقر الشرع على الأذن، والثاني: أن النهي عن الرقى المجهولة كما سبق، والثالث: أن النهي لقوم كانوا يعتقدون منفعتها وتأثيرها بطبعها كما كانت الجاهلية تزعمه في أشياء كثيرة، أما قوله في الحديث الأخر: (لا رقية إلا من عين أو حمة)[2] فقال العلماء: لم يرد به حصر الرقية الجائزة فيها ومنعها فيما عداهما، وإنما المراد لا رقية أحق وأولى من رقية العين والحمة لشدة الضرر فيها... ثم قال: قال كثيرون أو الأكثرون يجوز الاسترقاء للصحيح لما يخاف أن يغشاه من المكروهات والهوام ودليله أحاديث، ومنها: حديث عائشة – رضي الله عنها– في صحيح البخاري كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشة تفل في كفه ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين ثم يمسح بها وجهه وما بلغت يده من جسده والله أعلم)[3].

ومن الأدلة على جواز الاسترقاء أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: (يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم قال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك)[4] فقوله: (باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد) هذا تصريح بالرقى بأسماء الله ﷻ، وفيه توكيد الرقية والدعاء وتكريره، وقوله: من شر كل نفس قيل: يحتمل أن المراد بالنفس نفس الأدمي، وقيل: يحتمل أن المراد بها العين فإن النفس تطلق على العين ويقال: رجل نفوس إذا كان يصيب الناس بعينه، كما قال في الرواية الأخرى (من شر كل ذي عين)[5] ويكون قوله: (أو عين حاسد من باب التوكيد بلفظ مختلف)[6] ومن الأدلة أيضاً أن عائشة – رضي الله عنها – قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان، مسحه بيمينه ثم قال: (أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يُغادر سقما)[7]، وتقول أيضاً: (أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد مريضاً يقول: (أذهب البأس، رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)[8] وعنها أيضاً قالت: (كان رسول الل ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما

(١) مسلم كتاب السلام – باب رقية المريض بالمعوذات (١٤/ ١٥٢).

(٢) مسلم كتاب السلام – باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (١٤/ ١٥٥).

(٣) البخاري كتاب الطب – باب النفث في الرقية (١٢٠/٧).

(٤) مسلم كتاب السلام – باب الطب والمرض والرقى (١٤/ ١٤٣).

(٥) مسلم كتاب السلام – باب الطب والمرض والرقى (١٤/ ١٤٣).

(٦) شرح النووي (١٤/ ١٤٣).

(٧) البخاري كتاب الطب – باب مسح الراقي الوجع بيده اليمنى (٧/ ١٠٢)، ومسلم كتاب السلام – باب الطب والمرض والرقى (١٤/ ١٥١).

(٨) مسلم كتاب السلام – باب الطب والمرض والرقى (١٤/ ١٥١).

مرض مرضه الذي مات فيه، جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه، لأنها كانت أعظم بركة من يدي)[١] وعنها أيضاً أن رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا، ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها: (ويقول باسم الله، تربة أرضنا بريقة بعضنا ليُشفى به سقيمنا بإذن ربنا)[٢] يقول النووي –يرحمه الله–: (قال جمهور العلماء: المراد بأرضنا هنا جملة الأرض، وقيل: أرض المدينة خاصة لبركتها، والريقة أقل من الريق، ومعنى الحديث أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل، ويقول هذا الكلام في حال المسح)[٣] ولعل من أظهر الأدلة على جواز الاسترقاء والرقية أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت إن رسول الله ﷺ قال لجارية رأى بوجهها سفعة: (بها نظرة فاسترقوا لها)[٤] يعني بوجهها صفرة، والمراد بالنظرة هي العين أي أصابتها عين، قيل: هي المس أي مس الشيطان[٥]، ومن أهم الأسباب الدعاء بصدق ويقين، حيث إن الدعاء عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، يقول الرسول ﷺ: (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[٦]، فالدعاء له مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً.

الثاني: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثالث: أن يتفاوتا ويمنع كل واحد منهما صاحبه[٧]، يقول شيخ الإسلام – يرحمه الله –: (فالدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أُمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعتق)[٨].

المطلب الرابع: الفرق بين التوكل والتفويض:

إن بين التوكل على الله ﷻ وتفويض الأمر إليه علاقة العموم والخصوص، يقول الهروي – يرحمه الله – مفضلاً التفويض على التوكل: (إذ التفويض أوسع من معنى التوكل، والتوكل أخص من التفويض، فالتفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل،

---

(١) مسلم كتاب السلام – باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (١٤/ ١٥٢– ١٥٣).

(٢) مسلم كتاب السلام – باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (١٤/ ١٥٤).

(٣) شرح النووي (١٤/ ١٥٤).

(٤) مسلم كتاب السلام – باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة (١٤/ ١٥٥).

(٥) شرح النووي (١٤/ ١٥٥).

(٦) الترمذي في كتاب السنن –كتاب القدر – باب لا يرد القدر إلا الدعاء (٤/ ١٤٤٨)، وابن ماجة في السنن في المقدمة – باب في القدر (١/ ٣٥) وقال الإمام الألباني: حسن.

(٧) الجواب الكافي (٤) ط دار الكتب.

(٨) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٥ – ١٩٦).

فإن التوكل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام، والتوكل شعبة منه)[١]، ويقول ابن القيم — يرحمه الله —: (يعني بذلك من يفوض أمره إلى الله يتبرأ من الحول والقوة، ويفوض الأمر لصاحب الأمر من غير أن يقيم المفوض عليه مقام نفسه في مصالحه، بخلاف التوكل، فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام المتوكل)[٢]، ويقول أيضاً موضحاً أفضلية التوكل على التفويض: (التوكل فوق التفويض وأجل منه وأرفع... ولهذا كان القرآن مملوءاً به أمراً، وإخباراً عن خاصة الله وأوليائه، وصفوة المؤمنين بأن حالهم التوكل، وأمر الله به رسوله في أربعة مواضع من كتابه)[٣]، وسماه (المتوكل) كما في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو — رضي الله عنهما — قال: (قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: محمد رسول الله، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب بالأسواق)[٤]، وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التوكل، وبه انتصروا على قومهم، وأخبر النبي ﷺ عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[٥]، أنهم أهل مقام التوكل، ولم يجيء التفويض في القرآن إلا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون من قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، وقد أمر رسوله ﷺ بأن يتخذه وكيلاً فقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩][٦]، وبذلك يتضح خطأ من يقول من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه جسارة على الباري، لأن التوكل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل وذلك عين الجسارة، وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلاً هو محض العبودية، وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة، وبذلك يتضح أن التوكل أعلى وأرفع، وأما الذين زعموا أن التفويض عين الانقياد بالكلية إلى الحق ﷻ ولا يبالي أكان ما يقضى له الخير أم خلافه؟ والمتوكل على الله في مصالحه، والجواب عليهم من وجهين:

أحدهما: أن المفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده، وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيراً، فهو راضي به، لأنه يعلم أنه خير له، وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه، وهكذا حال المتوكل سواء، بل هو أرفع من المفوض، لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض، فإن المتوكل مفوض وزيادة، فلا يستقيم مقام (التوكل) إلا بالتفويض فإنه إذا فوَّض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه، ونظير هذا: أن من فوض أمره إلى رجل وجعله إليه،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) بل ورد الأمر به أكثر من ذلك في سورة آل عمران الآية (١٥٩) ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفي سورة النساء الآية (٨١) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفي سورة الأنفال الآية (٦١) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، وفي سورة هود الآية (١٢٣) ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وفي سورة الفرقان الآية (٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، وفي سورة الشعراء الآية (٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، وفي سورة النحل الآية (٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، وفي سورة الأحزاب الآية (٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وفي سورة الأحزاب الآية (٤٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

(٤) البخاري في كتاب البيوع — باب كراهية السخب في الأسواق (٣/ ٨٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) مدارج السالكين (٢/ ١٣٨).

فإنه يجد من نفسه — بعد تفويضه — اعتماداً خالصاً، وسكوناً وطمأنينة إلى المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض وهذا هو حقيقة التوكل.

الوجه الثاني: إن أهم مصالح المتوكل: حصول مراضي محبوبه ومحابه، فهو يتوكل عليه في تحصيلها له، فأي مصلحة أعظم من هذه؟ وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلى الله، فإنه لا يفوض إليه محابه، والمتوكل يتوكل عليه في محابه، يقول ابن القيم — يرحمه الله —: (والوهم إنما دخل من حيث يظن الظان أن التوكل مقصور على معلوم الرزق وقوة البدن وصحة الجسم، ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلى التوكل في إقامة الدين والدعوة إلى الله)[1]، وبذلك يتضح أن التوكل أفضل من التفويض فعلى العبد عند نزول الأوبئة والأمراض والكوارث أن يقوم بأسباب جلب المصالح ودفع المضار الدنيوية والأخروية، ويجب عليه الأخذ بالأسباب التي جعلها الله شرائط لنتائج حساً وشرعاً، مع اعتقاده أنها لا تؤثر إلا بقدر الله، ولو شاء الله لسلب عنها نتائجها في غير ما أخذ الله العهد فيه على نفسه فالالتفاف إلى الأسباب شرك في التوحيد، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومحو الأسباب نقص في العقل يقول الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويقول الرسول ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[2]، وهذه سنة الرسول ﷺ وآله وصحبه والنبيين من قبله، فعلى العبد أن يعتمد على الله جلَّ وعلا، ويتوكل عليه في أن ينفع الله ﷻ بما يأخذ العبد من أسباب ويبارك فيه، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] فإن أعظم ما يجلب النعم هو توحيد الله وعبادته، والتوكل عليه، ودعاؤه والتوبة إليه واستغفاره، ويتأكد هذا الأمر عند نزول الأوبئة والأمراض والجوائح.

المطلب الخامس: مواطن التوكل:

إن التوكل على الله ﷻ مطلوب في كل شئون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحض على التوكل، والأمر به للرسول ﷺ والمؤمنين ومن تلك المواطن:

أولاً: **عند نزول المصائب**: يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، يقول ابن جرير — يرحمه الله —: (يقول الله ﷻ مؤدباً نبيه محمد ﷺ: قل: يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا

(١) انظر المصدر السابق (٢/ ١٣٩ — ١٤٠).

(٢) مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة — باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله ﷻ وحسن الظن (١٧/ ١١).

عنك ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ أيها المرتابون في دينهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ يقول: هو ناصرنا على أعدائه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول: وعلى الله فليتوكل المؤمنون فإنهم أن يتوكلوا عليه ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئاً غيره، يكفهم أمورهم وينصرهم على من بغاهم وكادهم)[١]، فالآية تفيد أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصيبة، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة، لعلمه بأن الله ﷻ ناصره وجاعل العاقبة له[٢]، فيتوكل على الله ﷻ ويفوض الأمور إليه، حيث إن العبد تحت مشيئة الرب وقدره ولذا يكون الملجأ للرب ﷻ فهو نعم الوكيل[٣]، وهو المتولي لأمور العبد الدينية والدنيوية وبذلك يشعر بالرضا بقدر الله وقضائه لأنه ليس في يده من الأمر شيء فيعتمد على الله ﷻ في جلب المصالح ودفع المضار، ويثق به في تحصيل مطلوبه، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره فإنه مخذول غير مدرك لما تأمل[٤]، فالعبد المؤمن يعتقد أن كل ما يقع ويحدث من الخير والشر، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كل ذلك بقضاء الله وقدره، قد علمه ﷻ وكتبه في اللوح المحفوظ قبل كونه، وهو واقع وحادث بمشيئته ﷻ وخلقه[٥]، وعندها يعتقد أن من الواجب إفراده ﷻ بالعبادة والتقوى، وأن يبذل الأسباب[٦]، ويسأل الله التوفيق والهداية، والنجاة من الكروب والمصائب والأوبئة والأمراض والجوائح، لعلمه أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له فهو يؤمن بمراتب القضاء والقدر وهي: علم الله ﷻ وكتابته ومشيئته وخلقه، وبذلك يتضح خطأ قول الأباضية والصوفية والجبرية والدهرية الذين يدفعون أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، فيبطلون الأوامر والنواهي، لأنهم يزعمون أن القدر يوافق الأمر والنهي[٧].

ثانياً: عند العلم بأن الله هو الواحد على الحقيقة فلا يكن الاتكال إلا عليه: يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] فالعبد المؤمن يعتقد بأن الرب الإله هو الذي يتوكل عليه، فهو الذي رباه بنعمه وفضله منذ أن أوجده، وهو إلهه الذي عليه يتوكل في جميع أموره في السراء والضراء، وإليه ينيب في جميع عباداته وحاجاته، فعند نزول البلاء والأوبئة والأمراض يتوجه بالدعاء والتضرع مع الأخذ بالأسباب المشروعة بزوال الشر والضرر[٨]، فالعبد المؤمن يعلم

---

(١) جامع البيان (٥/ ١٠٤). فتح القدير (٢/ ٣٦٩).

(٢) فتح القدير (٢/ ٣٦٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٣٩).

(٤) تفسير الكريم الرحمن (٣٠٠).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٥٣٤ – ٦٢٣)، عقيدة السلف الصالح (٩٠ – ٩٥).

(٦) معارج القبول (٢/ ٣٤٥)، مجموع الفتاوى (٨/ ٢٦٤ – ٢٩٣)، رسالة الاحتجاج بالقدر (٢١ – ٢٣)، الشوقيات (٣/ ١٥٥)، ديوان حافظ إبراهيم (٤٤٨).

(٧) جامع البيان (٥/ ١٠١٤).

(٨) تيسير الكريم الرحمن (٣٧٢ – ٥٧٣).

علماً يقيناً أن المرجع والإنابة والتوبة لله ﷻ، وقد اشتملت الآية على نوعين من أنواع التوحيد: الربوبية والألوهية، فلا يستحق الربوبية والألوهية إلا هو ﷻ، لذا فإن العبد عند نزول الوباء ليس له إلا أن يلجأ إلى الرب القادر على إزالة كل بلاء.

ثالثاً: عند إرادة العبد أن يكون الله وكيله في كل حال: يقول الله ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] أي نعم الكافي لمن التجأ إليه، والحافظ لمن اعتصم به، وهو خاص بعباده المؤمنين به المتوكلين عليه، يقول الشنقيطي – يرحمه الله –: (الوكيل من يتوكل عليه فتفوض الأمور إليه ليأتي بالخير ويدفع الشر، وهذا لا يصلح إلا لله وحده جل وعلا، ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه، لأنه لا نافع ولا ضار ولا كافي إلا هو وحده جلّ وعلا عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل)[1]، فالعبد المؤمن يتمسك بالتوكل على الله في كل أحواله، لأن التوكل على الله ﷻ من أعظم مقامات الدين ولوازم الإيمان ومقتضياته، يقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، كما جعل الله التوكل عليه شعاراً لأهل الإيمان يتميزون به عن غيرهم فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بل أن الله ﷻ جعله شرطاً للإيمان لا يتحقق إلا به كما قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ولذلك حث الرسول ﷺ على التوكل عليه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] لأن كل من اعتمد على الله ﷻ لابد أن يكون ناصراً ومعيناً له، فالعبد المؤمن يتوكل على الله ﷻ في جميع الأوقات ومنها وقت نزول البلاء والأوبئة، فيتوكل على الله ﷻ ويدعوه حتى يكشف السوء والبلاء، وخاصة أن الله ﷻ قد أخذ على نفسه أنه يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] فالعبد المؤمن يتوكل على الله ويتذلل له ويظهر فقر العبودية، فإن الرب ﷻ يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه، لأن وصول بره وإحسانه إليه قد يكون موقوفاً على سؤاله، لذا أمره الله ﷻ بسؤاله والطلب منه والتوكل عليه إظهاراً لمرتبة العبودية والفقر والحاجة، واعترافاً بقرار الربوبية وكمال غنى الرب، وتفرده بالفضل والإحسان، فإن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئاً، ولكن ربه ﷻ يحب أن يُسأل ويُرغب إليه ويُطلب منه ويتوكل عليه، يقول الله ﷻ في الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم)[2].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٠٣ – ٤٠٤).

(٢) مسلم في كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤).

رابعاً: إرادة محبة الله ﷻ: يقول الله ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ففي هذه الآية يحث الله ﷻ الرسول ﷺ أن يتوكل عليه، لأنه يحب المتوكلين عليه، المفوضين أمورهم إليه، لأن المتوكل على الله ﷻ يعتمد على حول الله وقوته، ويتبرأ من حوله وقوته، وذلك قمة الطمأنينة والسكينة، وبذلك يحصل على الظفر والفوز بمطلوبه الذي حصَّل له السكينة، فالسكينة بمنزلة من واجهه عدو وأراد هلاكه، فهرب منه عدوه، فسكن روعه، والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحاً فدخله وآمن فيه، وتقوى به، فللقب ثلاثة أحوال: أحدها الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه، الثاني: زوال ذلك الوارد الذي يزعجه ويقلقه عنه وعدمه، الثالث: ظفره وفوزه بمطلوبه الذي كان الوارد حائلاً بينه وبينه، فبالطمأنينه يطمئن القلب ويتعرف على الهداية، وتدفع الشبه، وبالسكينة يثبت القلب ويزال القلق والاضطراب[1]، فالمتوكل على الله ﷻ يحب ربه ويطيعه ويأخذ بالأسباب المشروعة ويعتقد أن الله بيده ملكوت السماوات والأرض يقول الله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٩ – ٨٢]، فالمتوكل على الله ﷻ يأخذ بالأسباب التي تقربه من مولاه وحتى ينال محبته، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ويقول الله ﷻ في الحديث القدسي: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، ولا يزال عبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لاعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبد المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته)[2]، يقول الرسول ﷺ: (إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال: إني أحب فلان فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[3]، فالمتوكل على الله ﷻ يقوم بالفرائض الواجبة ويتحبب إلى الله ﷻ بالنوافل حتى ينال محبة الله ﷻ، وإذا نال محبة الله نال السعادة والفوز في الدارين.

خامساً: عند الشعور باليأس والشدة: إن المريض الذي أُصيب بالوباء يشعر بشدة الوباء فليس له إلا أن يتوكل على ربه ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] فالآية توضح بمنطوقها أن الشيطان ليس له سلطان ولا تسلط على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وحده لا شريك له، فيدفع الرب عنهم شر الشيطان

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢).

(٢) كتاب البخاري في كتاب الرقاق – باب التواضع (٧/ ١٩٠).

(٣) البخاري في كتاب التوحيد – باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله للملائكة (٩/ ١٧٣ – ١٧٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة – باب إذا أحب الله عبداً أحببه إلى عباده (٤/ ٢٠٣).

ولا يبقى له عليهم سبيل[1]، فالشيطان ليس له تسلط وقدرة على إغواء المؤمن الصادق المتوكل على الله ﷻ المتعلق قلبه به، فإن الشيطان يتسلط على الأشقياء، الذين يطيعونه، ويجعلونه إماماً لهم وقائداً، فقد يوقعهم في الشرك أو الكفر والعياذ بالله ﷻ[2]، فالمؤمن الحق هو المتوكل على الله ﷻ في كل أموره كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] ويقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣]، فعندما يشعر العبد باليأس والشدة، فإنه ييأس من جميع الخلق، ولا ييأس من رحمة الله حيث إن رحمته قريبة من المؤمنين فيتوكل على الله في حال الشدة أو المرض أو الوباء، فيجد السعادة والراحة من الرب ﷻ.

سادساً: عند إرادة معية الله ﷻ: يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] فالمتوكل الذي يعتمد في أموره كلها على ربه، يكفيه الله ما أهمه وأغمَّه لأنه على الدين الحق المبين الواضح فينال محبة الله ﷻ، حيث إنه متى اتخذ الله حسيباً وكافياً نال السعادة والطمأنينة، والحسيب هو الكافي الذي كفل عباده جميع ما أهمهم من أمور دينهم ودنياهم، الميسر لهم كل ما يحتاجونه، الدافع عنهم كل ما يكرهونه، فهو الحفيظ على عباده كل ما عملوه، أحصاه الله ونسوه، وعلم الله ﷻ ذلك، وميَّز الله صالح العمل من فاسده، وحسنه من قبيحه، وعلم ما يستحقون من الجزاء ومقدار مالهم من الثواب والعقاب، والكافي: الذي كفاية الخلق كل ما أهمهم بيده ﷻ، وكفايته لهم عامة وخاصة، أما العامة: فقد كفى الله ﷻ جميع المخلوقات وقام بإيجادها وإمدادها وإعدادها لكل ما خُلقت له، وهيَّأ للعباد من جميع الأسباب ما يغنيهم ويُقنيهم ويطعمهم ويسقيهم، وأما الكفاية الخاصة: فكفايته للمتوكلين، وقيامه بإصلاح أحوال عباده المتقين، لذا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه كل أموره الدينية والدنيوية، وإذا توكل العبد على ربه حق التوكل بأن اعتمد بقلبه على ربه اعتماداً قوياً كاملاً في تحصيل مصالحه ودفع مضاره، وقويت ثقته وحسُن ظنه بربه، حصلت له الكفاية التامة، وأتم الله له أحواله وسدده في أقواله وأفعاله، وكفاه همَّه، وكشف غمه، ولقد دل القرآن الكريم على أن تحقيق العبودية لله، وحسن التوكل عليه أمر لابد منه لنيل كفاية الله الخاصة بأوليائه المؤمنين وعباده المتقين يقول الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه: أي: كافيه ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٠١).

(٢) التفسير الواضح الميسر (٦٧٦ – ٦٧٧).

والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله ﷻ لكل عمل جزاءً من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه ﷻ كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله ﷻ حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره)[١]، ولذا فإن العبد الذي ناله الوباء أو البلاء وتوكل على الله ﷻ يجد أن الله حسبه وكافيه من جميع الشرور.

سابعاً: عند طلب النصر والفرج: يقول الله ﷻ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] فإذا أراد الله ﷻ للمتوكل عليه العز والنصر، فلا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يغلبه أو يقهره، وإن أراد هزيمة العبد وخذلانه، فمن الذي يستطيع أن ينصره غير الله ﷻ؟ فالأمر كله لله بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان، فعلى الله وحده يتوكل المؤمنون[٢]، فالله ﷻ بكرمه وجوده وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته، وأمتثل أمره واجتنب لنهيه، فإن الله سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء، فهو القائل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٣] [الزمر: ٣٦]، ولذا فقد دعا ﷻ عباده إلى التوكل عليه وحده، وجعل ذلك دليل الإيمان، يقول الله ﷻ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ووعد على ذلك عظيم الثواب وحسن المآب، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، وحذر ﷻ من التوكل على سواه، فقال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، والتوكل على الله وحده، وتفويض الأمور كلها إليه والاعتماد عليه في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء مقام عظيم من مقامات الدين الجليلة، وفريضه من فرائض الله على عباده يجب إخلاصها لله وحده، وهو من أجمع أنوع العبادة وأهمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة والطاعات الكثيرة فإنه إذا اعتمد القلب على الله في الأمور الدينية والدنيوية ثقة به ﷻ بأنه الكفيل الوكيل لا شريك له صح إخلاصه وقويت معاملته مع الله وحسُن إسلامه وزاد يقينه وصلحت أحواله كلها.

فالتوكل الأصل لجميع مقامات الدين، ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل، وحقيقة التوكل هو عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقه

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٦ – ٧٦٧).

(٢) التفسير الواضح الميسر (١٥٧ – ١٥٨).

(٣) وقفات إيمانية مع بعض أسماء الله الحسنى (٢٢٤ – ٢٢٥).

به والتجاء إليه، ورضا بما يقضيه له، لعلمه بكفايته ﷻ وحسُن اختياره لعبده إذا فوض إليه أموره مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، ففي التوكل جمع بين أصلين: اعتماد القلب على الله وحده لا شريك له، مع فعل الأسباب المأمور بها والقيام بها، دون تعدَّ إلى فعل سبب غير مأمور به، أو سلوك طريق غير مشروع، وقد جُمع بين هذين الأصلين في نصوص كثيرة كقول الله ﷻ:﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ٢٣] وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقول النبي ﷺ: (أحرص على ما ينفعك واستعن بالله)[١]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة، فالعبد المبتلى بالوباء إذا اعتمد على الله ﷻ وتوكل عليه فلابد أن ينصره الله ﷻ ويعطيه الفرج.

ثامناً: عند إعراض الناس: يقول الله ﷻ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، إن العبد المتوكل على الله يكون الله ناصراً له ومعيناً، وينتقم له ممن عادوه، حيث إن الله ﷻ يكفيه ويدفع عنه الشر، فالمتوكل قد توكل على المعبود الحق، واعتمد عليه فلا يخاف ولا يرجو أحداً سواه، فهو الذي قد أحاط بالسماوات والأرض، وأحاط بكل شيء علماً، فالتوكل مصاحب للمؤمن الصادق في أموره كلها الدينية والدنيوية، فهو مصاحب له في صلاته وصيامه وحجه، وبرَّه وغير ذلك من أمور دينه، ومصاحب له في جلبه للرزق والخير والصحة، وطلبه للمباح، وغير ذلك من أمور دنياه فهذا نوعان: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه ومنها الأوبئة والأمراض، وتوكل عليه في حصول ما يحب هو ويرضاه من الإيمان واليقين والصلاة والصيام والحج والجهاد والدعوة وغير ذلك، فالمتوكل على الله ﷻ ينصره الله ﷻ فهو النصير الذي يتولى نصر عباده ويتكفل بتأييد أوليائه والدفاع عنهم، والنصر لا يكون إلا منه، ولا يتحقق إلا بمنَّه، فالمنصور من نصره الله، إذ لا ناصر للعباد سواء، ولا حافظ لهم إلا هو[٢]، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ويقول: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]، فالتوكل على الله ﷻ يحتاجه العبد في أموره كلها، عند تلاوة القرآن الكريم، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وعند طلب الهداية من الله ﷻ، وبعد الحصول عليها فعلى العبد أن يستقبلها بالشكر والتوكل، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وعند إرادة الجنة ونعيمها، يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]، ومن المعلوم أن جزاء الصابرين دخول الجنة من غير حساب يقول الله ﷻ:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فقه الأسماء الحسنى (٢٧٩ – ٢٨٠).

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ولذلك فإن التوكل يصاحب العبد في جميع أحواله وأموره، في الصغر والكبر، وفي السر والعلن، وفي السلم والحرب، وفي الصحة والمرض، وفي الرخاء والشدة، وفي السعادة والشقاء، لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)(١).

المطلب السادس: فوائد التوكل على الله في القضاء على الأوبئة:

إن للتوكل على الله ﷻ فوائد لا تُعد ولا تحصى ومن تلك الفوائد:

١. إن التوكل على الله ﷻ من كمال الإيمان، وحسْن الإسلام: فإذا توكل العبد على الله ﷻ علم أن كل أموره خير لإيمانه بالرب ﷻ، فالتوكل قرين للإيمان، يقول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، ويقول: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، فنجد المتوكل على الله يعلم حق اليقين بأن النفع والضر، والسعادة والشقاء بيد الله وحده ﷻ، فتجده عزيزاً قوياً صامداً أمام النوازل والمصائب والأوبئة والبلاء، يقول الله ﷻ مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فإذا كان أفضل المخلوقات وأعظمها محمد ﷺ ليس وكيلاً لأحد من الخلق، وبذلك يتضح أن العبد المؤمن لا يتوكل إلا على الله ﷻ فيثق بالله ﷻ ثم يأخذ بالأسباب الشرعية المادية للقضاء على الأوبئة والأمراض، فالمؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتحقق توحيده، ويزيد إيمانه ويسير على هدى من ربه، فالإيمان بالقدر يحمل صاحبه على الإخلاص والتوكل على الله، فيكون الباعث له في جميع أعماله، امتثال أمر الله ﷻ، ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم أن الأمر أمر الله، وأن الملك ملكه، وأن ما شاء كان، ومالم يشاء لم يكن، لا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، فيقوده ذلك إلى إخلاص عمله كله لله ﷻ مع التوكل عليه ﷻ فيتمثل فيه قول الشاعر:

فما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن(٢)

حيث إن التوكل على الله هو لب العبادة ولا يصح التوكل ولا يستقيم إلا لمن آمن بالله ﷻ وبالقدر على الوجه الصحيح، فالتوكل الشرعي هو توجه القلب إلى الله ﷻ حال العمل واستمداده المعونة منه، والاعتماد عليه وحده،

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٢١٢) رقم (١٠٣٣٠)، المستدرك للحاكم (١/ ٧٣٠) رقم (٢٠٠٠) وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤١٧) رقم (٦٦١).

(٢) ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس من شعر الإمام محمد بن إدريس (١٤٣).

فذلك سر التوكل وحقيقته، فإذا توكل العبد على ربه وسلم له، وفوض إليه أمره، أمده الله ﷻ بالقوة والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات والبليات، وأراه من حسُن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه[١].

٢. التوكل على الله ﷻ يجلب محبة الله ﷻ ومعونته ونصره وتأييده ومعيته: إن المتوكل على الله ﷻ ينال محبة الله ﷻ، ومن أحبه الله ﷻ نال السعادة في الدنيا والآخرة، فمحبة الله للعبد ثابتة بالقرآن والسنة، فهو ﷻ يحب من أطاعه من عباده، وهذا تفضيل وإنعام على من أحبه، وهو وصف على غاية الكمال والجلال والغنى، لا يعتريه نقص، ولا يرد عليه تشبيه، يقول الرسول ﷺ: (إن الله يحب العبد النقي الغني الحفي)[٢]، وإذا أحب الله ﷻ العبد جعله يحب ما يحب الله ﷻ، ويبغض ما يسخطه الله، يمتثل بالأوامر، ويجتنب المناهي، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه[٣]، ويلح في الدعاء والتوكل فيصبح قلبه طاهراً ونفسه مطمئنة تسمو وتعلو بمحبة الله ﷻ فيكون نوراً يضيء للعبد الطريق، فلا يفرح بما أعطاه الله، ولا يحزن لما أصابه لعلمه بأن كل ذلك بيد الله ﷻ، فعندما يُصاب بالبلاء أو الوباء نجده متقبلاً البلاء بنفس راضية لعلمه وحُسن ظنه بربه، فلا ييأس من رحمة الله القائل في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[٤]، ويقول الرسول ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)[٥]، وحسن الظن بالله من الأسباب التي تشرح صدر المبتلى وتيسر عليه الأمور، ومن ثم يثق بالله ويأخذ بجميع الأسباب التي تؤدي إلى علاجه من الوقاية والعلاج والتطبب، فيجد الله ﷻ يعطيه ما يريد.

٣. إن التوكل على الله ﷻ يدفع العبد إلى طلب المعونة من الله الملك: ليقين المتوكل بالعجز التام عن تحصيل ما يريده، وتمام قدرة الله على إنجاز كل ما يريد، وفوق ما يريد، فالمتوكل على الله يعلم علم اليقين أن الله هو الصمد السيد العظيم الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعزته وعظمته وجميع صفاته، فهو واسع الصفات عظيمها، الذي صمدت إليه جميع المخلوقات وقصدته كل الكائنات بأسرها في جميع شؤونها، فليس لها رب سواه، ولا مقصود غيره يقصده العبد ويلجأ إليه في إصلاح أموره الدينية والدنيوية، يُقصد عند النوائب والمزعجات، ويتضرع إليه إذا أصابته الشدائد والكربات، ويستغيث به إذا مسته المصاعب والمشقات، لأنه يعلم أن عنده حاجاته، ولديه تفريج كرباته لكمال علمه، وسعة رحمته، ورأفته وحنانه وعظيم قدرته وعزته وسلطانه، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور

(١) الزهد لهناد بن السري (١/ ٣٠٤).

(٢) البخاري كتاب الزكاة – باب الاستعفاف عن المسألة (٢/ ١٢٣)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق – باب إن الله يحب العبد النقي الغني الحفي (١٨/ ١٠٠).

(٣) أعلام السنة المنشورة (٩٠)، معارج القبول (٢/ ٤٤٤).

(٤) البخاري في كتاب التوحيد – باب ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (١٣/٢٩٠)، ومسلم كتاب التوبة – باب فضل الذكر والدعاء وحسن الظن بالله تعالى (١٧/ ١١).

(٥) مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها – باب المرء يحسن الظن بالله تعالى (٦/ ٢٨٤).

السلف، منهم عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما –: (الصمد الذي كمل سؤدده، فهو العالم الذي كمل علمه، والقادر الذي كملت قدرته، والحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده)[١]، فإذا علم المتوكل على الله المريض اتصاف ربه بهذا الكمال والجلال، وأنه ﷻ لا شيء فوقه، ولا شيء يعجزه، وأنه ﷻ مفزع الخلائق وملجؤها فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه وإليه وحده المعز، وهو وحده الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها ومسائلها ورغباتها، وجب عليه أن لا يلجأ إلا إليه، ولا يطلب حاجة إلا منه، ولا يصرف عبادته إلا له، ولا تكون استعانته إلا به، ولا يكون توكله إلا عليه، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] وبذلك يصدق توكله على الله، فيجيب الله ﷿ دعاءه ويشفيه من البلاء والوباء، وكل ذلك يحصل وزيادة للعبد المتوكل لمحبة الله ﷻ له.

٤. إن المتوكل على الله ﷻ يُحفظ من الشيطان الرجيم ومن البشر اللئيم: إن المتوكل على الله ﷻ إذا أصابه البلاء أو الوباء، لا يتسلط عليه الشيطان فيوسوس له بأمور كثيرة، وهذا بخلاف العبد الذي في توكله خلل فقد يتسلط عليه الشيطان فيوقعه في متاهات كثيرة قد تبعده عن الدين الإسلامي برمته، بأن يوسوس له بأن الله ﷿ لا يحبه ولذلك أصابه بالأمراض والأوبئة، أو بأن الله ﷻ ظالم – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً –، أما المتوكل على الله ﷻ يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لعلمه بأن الله ﷿ حكيم وحكم يحكم بين عباده بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، يقول الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨] ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٠ – ١٢]، وثبوت الحكم له ﷻ يتضمن ثبوت جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا، لأنه لا يكون حكماً إلا سميعاً بصيراً علياً خبيراً متكلماً مدبراً، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات، كما أن في ذلك دلالة على أن من هذا شأنه هو المستحق وحده أن يفرد بالذل والخضوع، يقول الله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالمتوكل على الله ﷻ يعلم أن الله ﷻ حكيم في خلقه وفي أمره وشرعه، فهو يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ولا يتوجه إليه سؤال ولا يقدح في حكمته مقال، وإذا كان من المقرر أن الله ﷻ له الكمال الذي لا يحيط به العباد، وأنه ما من كمال تفرضه الأذهان، ويقدره المقدرون إلا والله أعظم من ذلك وأجلَّ، فإن أفعاله وجميع ما أوصله إلى الخلق أكمل الأمور وأحسنها وأنظمها واتقنها، فالفعل يتبع في

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٥).

كماله وحُسنه فاعله، والتدبير منسوب إلى مدبره، والله ﷻ كما لا يشبهه أحد في صفاته في العظمة والحُسن والجمال، فكذلك لا يشبهه أحد في أفعاله، فالمتوكل على الله يعلم أن الله حكم عدل، لا يظلم أحداً ولا يفعل إلا الخير لعبده، فلا يتسلط عليه شياطين الجن والإنس، فيقبل بالقضاء القدر برضا وقبول، ويسعى في القضاء على الوباء والبلاء بالأساليب الشرعية والمادية، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد مالا يطيق عن أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم)[١]، فالمتوكل على الله ﷻ لا يتسلط عليه الشيطان ولا أعوانه من البشر.

٥. الوقوف على الحدود الشرعية وعدم الخوض في الحرام: إن المتوكل على الله ﷻ يصبر على السراء والضراء، فيحبس نفسه عن الجزع والتسخط، ويحبس اللسان عن الشكوى، ويحبس الجوارح عن التشويش، فالمتوكل على الله يترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلا لله، فنجده صابراً، والصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، فنجد المتوكل الصابر عنده ثبات في القلب عند موارد الاضطراب، فالمتوكل على الله ﷻ لا يقوم إلا بالأمور الشرعية في حالة المرض والوباء فلا يتعداها بالضجر والتأفف والسخط على الله ﷻ، ولذلك نجد أن نسبة الانتحار في المجتمعات الضالة كثيرة جداً عند نزول البلاء والأوبئة، فيقومون بعملية الانتحار، مع أن قتل النفس كبيرة من كبائر الذنوب، حيث إن الله ﷻ قرنها بالشرك به، فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وما قام هؤلاء بالانتحار إلا للخواء الروحي، ولعدم معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته الحسنى، حيث إن معرفة أسماء الله وصفاته، والفقه لمعناها، والعمل بمقتضاها وسؤال الله بها، يوجد في قلوب العابدين تعظيم البارئ وتقديسه ومحبته، وكلما ازداد القلب حباً لله ازادا له عبودية ومعرفة، وكلما كان العبد بأسماء الله وصفاته أعرف كان لله أعبد، فالمعرفة الكاملة الصحيحة تستلزم الاهتداء والتوكل عليه ﷻ، يقول ابن القيم – يرحمه الله –: (مفتاح دعوة الرسل وزبدة رسالتهم معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة من أولها لآخرها)[٢]، فمن عرف أسماء الله وصفاته عرف إلهاً حقاً خالقاً، رازقاً، رباً، منعماً، متفضلاً، ملكاً، قوياً، فوق عرشه يدبر أمر عباده يعطي ويمنع، يعز ويذل، ويخفض ويرفع، فعندها لا يتجه العبد بكل جوارحه إلا له ﷻ، ولا يخوض في أمر محرم، لعلمه بأن جميع الأمور التي تحصل له فيها من الخير مالا يعلمه، كما قال الرسول ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير له، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٣]،

---

(١) التفسير القيم لابن القيم (٥٨٧).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠).

(٣) مسلم كتاب الزهد – باب المؤمن أمره كله خير رقم (٢٩٩٩).

ويقول: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[١] ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه)[٢]، والوصب هو المرض، والنصب هو التعب، فلو أدرك العبد المتوكل على الله ﷻ العاقبة الحميدة على صبره وتوكله على الله لما تردد طرفة عين في تحمل المكاره، يقول الشاعر:

والصبر مثل اسمه مُر مذاقه　　　لكن عواقبه أحلى من العسل[٣].

٦. المتوكل على الله لا يخاف فوت شيء قُدر له: فيشعر براحة البال واستقراء الحال لعلمه ويقينه وإيمانه بالقضاء والقدر، فيعلم أنه إن لم يؤمن بالقضاء والقدر فلا يصح إيمانه، فالمتوكل على الله ﷻ يعتقد اعتقاداً جازماً، ويؤمن إيماناً بأن القضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره، من الله ﷻ قال الله ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٦]، فكل ما يقع ويحدث من الخير والشر، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلال ،والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والصحة والمرض، وجميع أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم الاختيارية منها والاضطرارية، وصحتهم ومرضهم، كل ذلك بقضاء الله وقدره، قد علمه الله ﷻ، وكتبه في اللوح المحفوظ قبل كونه، وهو واقع وحادث بمشيئته ﷻ وخلقه[٤]، وأما ما ورد من النصوص النقلية من نسبة الشر إلى غير الله ﷻ: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فالجن نسبوا الرشد إلى الله، والشر حذفوا الفاعل، ومن السنة قول الرسول ﷺ: (لبيك وسعديك والخير في يديك)[٥] فالاقتصار على الخير رعاية للأدب وإلا فالشر أيضاً بتقدير الله كالخير، ولذلك فإن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن مراتب القضاء والقدر أربع: المرتبة الأولى: علم الله ﷻ بالأشياء قبل وقوعها، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها[٦]، يقول الله ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ

---

(١) الوصب: التعب والفتور في البدن والوجع والمرض، لسان العرب (١٥/ ٣١٣ - ٣١٤)

(٢) البخاري كتاب المرض – باب ما جاء في كفارة المرض (١٠/ ٩١)، ومسلم كتاب البر – باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك رقم (٢٥٧٣).

(٣) شعر ابن عطاء الصوفي انظر الرسالة القشيرية (١/ ٨٥).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/٥٣٤–٦٢٣)، عقيدة السلف أصحاب الحديث (٩٠–٩٥).

(٥) البخاري كتاب الحج – باب التلبية والتكبير (٣/٤١٩).

(٦) بذلك يتضح خطأ من قال: إن القضاء والقدر قد يتغير ويتبدل من الماتريدية، واستدلوا بقوله ﷻ : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [الرعد: ٣٩]، والأشاعرة الذين قالوا: إن القدر لا يتغير أبداً، واستدلوا بقول الرسول ﷺ : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة... ثم يبعث الله ملكاً ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) والصحيح أن القضاء والقدر نوعان: سابق ولاحق، فالسابق ما في علم الله ﷻ وما كُتب في اللوح المحفوظ على وفق ما في علم الله ﷻ، فهذا لا يقع فيه تغيير ولا تبديل ولا محو ولا إثبات، ويقال له القضاء المبرم أو المطلق، واللاحق: ما في علم الحفظة الموكلين بالآدمي من الملائكة وما كتب في صحفهم، فهذا الذي يقبل النسخ، ويقع فيه التغير والمحو والإثبات، ويقال له القضاء المعلق كما في قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: (من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه) فإن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، كأن يُقال للملك مثلاً: إن عمر فلان مائة مثلاً إن وصل رحمه وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وبذلك يتضح الحق والبرهان في النصوص التي يبدو عليها التعارض . انظر شرح مختصر الروضة للطوفي (١/ ٢٧٩- ٢٨٠) ، الفتاوى (٤/ ٤٤٨- ٤٩٢) ، تيسير الكريم المنان (٤/ ١١٦- ١١٧).

لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، والمرتبة الثالثة: مشيئته لها[١] يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، المرتبة الرابعة: خلقه لها، يقول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ويذكرون أن من لم يؤمن بهذه المراتب لم يؤمن بالقضاء والقدر، ومن معتقدهم أن الله أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ونهاهم عن معصيته وهو ﷻ يحب المحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد وهو الحكيم العليم، وأن الإيمان بكتابة المقادير يدخل في خمسة تقادير:

أ. التقدير الشامل لجميع المخلوقات، بمعنى أن الله علمها، وكتبها، وشاءها، وخلقها.

ب. التقدير لكتابة الميثاق حين قال الله ﷻ:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ج. التقدير العمري: تقدير رزق العبد وأجله وعمله شقي أو سعيد في بطن أمه كما قال الرسول ﷺ: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد)[٢].

د. التقدير السنوي: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق، يقول الله ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الفرقان: ٤].

هـ. التقدير اليومي كما قال الله ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالله ﷻ كل يوم يغفر ذنباً، ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين، وهذا التقدير هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قُدرت لها فيما سبق، وهذا التقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي، والحولي تفصيل من التقدير العمري عند نفخ الروح في الجنين في بطن أمه، والعمري تفصيل من التقدير العمري الأول يوم الميثاق وهو تفصيل من التقدير الذي خطه القلم في الإمام المبين[٣]، فلذا فإن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن من الواجب إفراده ﷻ بالعبادة والتقوى، وعلى العبد أن يَبْذل

(١) يتضح خطأ من قال: إن المشيئة والإرادة بمعنى المحبة والرضا من المعتزلة والأشاعرة والجهمية، فالصحيح أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: إرادة كونية وهي التي بمعنى المشيئة وهذه الإرادة لا تستلزم محبة المراد ولا الرضى عنه، فالله ﷻ يريد الكفر كوناً ولا يرضاه شرعاً، كما قال الله ﷻ : (إن تكفروا فإن الله غني عنكم) [الزمر: ٧]، القسم الثاني: إرادة شرعية وهذه تستلزم المحبة والرضى. انظر الفتاوى (١٨٨/٨–١٨٩،٢٥٧)، شرح الطحاوية (٧٩/١–٨٠).

(٢) البخاري كتاب التوحيد – باب: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) (٣١٦/١٣–٣١٧).

(٣) معارج القبول (٣٤٥/٢).

الأسباب[١]، ويسأل الله التوفيق والهداية، ويعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ويعلم علماً يقيناً أن الله لا يضيع أجر المحسنين[٢]، ولا يظلم مثقال ذرة كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه*وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧–٨] فهذا الإيمان يجعله لا يخاف فوت أي أمر من الأمور، فيشعر براحة البال والاستقرار النفسي.

٧. يحقق رضا الله ﷻ فيجعل للعبد مخرجاً ويكفر عنه سيئاته: إن المتوكل على الله يجعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجا، لأنه في معية الله ﷻ الخاصة، حيث إن معية الله لخلقه قسمين[٣]: عامة وخاصة، فالعامة: هي التي تقتضي الإحاطة بجميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر في العلم، والقدرة، والتدبير والسلطان وغير ذلك من معاني الربوبية، وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال المراقبة لله ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وأما الخاصة: فهي التي تقتضي النصر والتأييد لمن أضيفت له، وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وأتباعهم، وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال الثبات والقدرة، ومن أمثلتها قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، ولكن المعنيين لا يدلان على أن ﷻ في الناس في أمكنتهم، بل هو مع الناس، وهو ﷻ فوق سماواته على عرشه، ولا مانع من ذلك، فإن الشيء يكون فوق وهو معك، والعرب يقولون: مازلنا نسير والقمر معنا، وكل يعلم أن القمر في السماء، ويقولون: مازلنا نسير وسهيل معنا وهو نجم معروف، وهو في السماء فما بالك بالخالق ﷻ هو فوق كل شيء، استوى على عرشه ومع ذلك هو محيط بكل شيء مع كل أحد[٤]، ومن الفوائد التي يحصل عليها المتوكل على الله ﷻ أنه يطيع الله والرسول ﷺ، فينال صاحبه الفوز بصحبة النبيين – صلى الله عليهم وسلم – في جنات النعيم، وينال سعة الرزق، وتمام المعونة من الله ﷻ فالله ﷻ هو المعطي الجواد، فالمتوكل على الله يعلم أنه لا مانع إلا الله وحده، ولا معطي إلا هو، يقول الله ﷻ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا

---

(١) بذلك يتضح خطأ قول الأباضية والصوفية والجبرية والدهرية الذين يدفعون أمر الله ونهيه بقضائه وقدره فيبطلون الأوامر والنواهي، لأنهم يزعمون أن القدر يوافق الأمر والنهي. انظر الفتاوى (٨/٢٦٤–٢٩٣)، رسالة الاحتجاج بالقدر ورفع الشبه والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر (٢١–٢٣)، الشوقيات (٣/١٥٥)، ديوان حافظ إبراهيم (٤٤٨).

(٢) يتضح خطأ من ساوى بين المؤمن التقي والعاصي الفاسق من الخوارج والمعتزلة والمرجئة، فالخوارج والمعتزلة يجعلان المؤمن التقي إذا قام بمعصية خالداً مخلداً في النار، والمرجئة جعلت إيمان الملائكة كإيمان الفاسق. انظر المقالات (١/٢١٤)، ذكر مذاهب الفرق (١٤٧)، الأنوار النعمانية (٢/٢٣١)، أصول الدين ط دار الكتب العلمية (٢٤٩)، مقدمة التوحيد لأبي حفص (٥٠)، شرح الأصول الخمسة (٦٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٨)، الاعتقاد للبيهقي (١١٤ – ١١٥).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ١٨١ – ١٨٢)، شرح القواعد المثلى (٢٦٩، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٩٧).

يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، فالمتوكل على الله عندما يعلم أن الله هو المعطي والمانع فيتقطع من قلبه عن الخلق المطامع ويقف مع الله بقلب راض، قانع، فإن أغناه صرف في طاعته غناه، وإن منعه علم أنه لم يمنعه من بخل ولا عدم بل ليكون منعه معقباً له ما هو أشرف وأكرم من الغنى الذي لا ينصره، فإن جاءه من أحد من الخلق سبب من أسباب الرزق أو غير ذلك فليرد ذلك إلى الواحد الحق، وإن منعه أحد الناس فلا يرى المانع إلا إليه، فيطرح الأوساط طرحاً، وكل موجود مع القدرة كالظل لا حكم له في الفعل، فلا يندم مانعاً بوجه، ولا يمدح معطياً من حيث ينظر إلى الله فيمدحه لمدح الله إياه إذا جرت بالخير يداه على ما أجراها الله[١]، لذلك كان الرسول ﷺ يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[٢]، ومن أعظم فوائد التوكل على الله محبة الله ﷻ فمن أحبه الله ﷻ جعله من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالمتوكل في حالة المرض يجد الله ﷻ معيناً، هادياً، رؤوفاً، رحيماً، فتهدأ نفسه وقلبه.

المطلب السابع: مفاهيم خاطئة حول التوكل:

لقد سبق تعريف التوكل بأنه الثقة بالله مع الأخذ بالأسباب، ولكن قد يخطئ البعض في معنى الأخذ بالأسباب فيتوجهون بالسؤال إلى الخلق سواءً كانوا أحياءً أم أمواتاً، يطلبون منهم قضاء الحوائج عند الضرورة، أو من غير ضرورة، يقول شيخ الإسلام – يرحمه الله –: (وسؤال الخلق في الأصل محرم، لكنه أُبيح للضرورة وتركه توكلاً على الله أفضل)[٣]، وقد يكون مباحاً إذا كان لضرورة أو حاجة كمن به فاقة أو أصابته جائحة[٤]، يقول النووي – يرحمه الله –: (وأما السؤال للمحتاج العاجز عن الكسب فليس بحرام، ولا مكروه صرح به الماوردي وهو ظاهر)[٥]، ويكون واجباً إذا كان في تركه هلاكاً للنفس[٦]، فالمريض الذي لا يجد مالاً لشراء العلاج فلا بأس من طلب الآخرين مساعدته بشرط ألا يعتمد اعتماداً كلياً بهذا السبب وأنه السبيل الوحيد للشفاء، بل يتوكل على الله ﷻ الذي بيده الأمور كلها، ومن ثم يستعين بالمخلوق في سبيل الحصول على العلاج، ومن

---

(١) أسماء الله الحسنى لابن القيم (٤٠٤ – ٤٠٥).

(٢) البخاري في كتاب الأذان – باب من لم يرد السلام على الإمام (٨٤٤)، مسلم في كتاب المساجد – باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٨١)، مراتب الإجماع (٢٥٠).

(٤) مراتب الإجماع لابن حزم (٢٥٠)، مجموع الفتاوى (١/ ٢٨١)، الرد على البكري (١/ ١٤٠)، مدارج السالكين (٢/ ١٣١) ط دار الكتاب العربي ١٣٩٢هـ، شرح النووي على مسلم (٧/ ١٢٧)، فتح الباري (٣/ ٣٣٦).

(٥) الرد على البكري (١/ ٤٠٢)، مختصر منهاج القاصدين (٣٢٣ – ٣٢٤) مكتبة دار البيان ١٣٩٨هـ.

(٦) المجموع شرح المهذب (٦/ ٢٣٦) مكتبة الإرشاد، الرد على البكري (١/ ٤٠٢)، مختصر منهاج القاصدين (٣٢٣ – ٣٢٤).

أدلة النهي عن السؤال وذمه قول الرسول ﷺ لقبيصة بن مخارق: (يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجة من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحَّلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش)[1]، ويقول: (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه)[2]، يقول ابن حجر – يرحمه الله –: (والذي نفسي بيده)، ففيه القسم على الشيء المقطوع بصدقه لتأكيده في نفس السامع، وفيه الحض على التعفف في المسألة، والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها)[3]، وبالنسبة لسؤال الخلق المعونة فينقسم إلى قسمين[4]:

القسم الأول: سؤال الخلق في حياتهم على ما يقدرون عليه، وأنه يدور الحكم فيه على الجواز والحرمة والوجوب مع حسب الحال.

القسم الثاني: سؤال الخلق فيما لا يقدرون عليه، مثل أن يطلب منهم شفاء المرض أو العافية أو غفران الذنب وغيرها من الأمور التي لا يستطيع أن يقدر عليها إلا الله ﷻ وحده فهذا نوع من الشرك الأكبر، ويدخل فيه أيضاً سؤال الخلق بعد مماتهم، وكذا الغائبون وللأسف الشديد نجد بعض أهل الأهواء والبدع من القبوريين يستدلون بحديث ضعيف في الاستعانة بالأحياء الغائبين والأموات فيقولون: قال: الرسول ﷺ: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا علي، يا عباد الله احبسوا علي، فإن لله في الأرض حاضراً سيجيبه عليكم)[5]، ولا دليل لهم فيما ذهبوا إليه فالحديث الضعيف لا يُستدل به إطلاقاً على الأمور العقدية، وبذلك يتضح مخالفة الصوفية والشيعة ومن وافقهم من المبتدعة الذين يدعون الموتى، ويستغيثون بهم، ويسألونهم قضاء حاجاتهم، ويطوفون حول قبر من يعظمون بل يحجون إليها[6]، وبهذا يظهر كذب الصوفية وزعمهم بأن الأقطاب والأولياء والأبدال يتصرفون في الكون والحياة تصرفاً مطلقاً[7]، ومن المفاهيم الخاطئة حول التوكل أن يعتقد بعض أهل الأهواء والبدع أن الدعاء وطلب الشفاء من الله ﷻ يناقض التوكل، مع أنه قد جاءت النصوص الشرعية مبينة علو شأن الدعاء، وسمو مرتبته، وشرف مكانته، وعظيم قدره، ولهذا ذكر في القرآن الكريم في نحو ثلاث مئة موضع، وسماه الله عبادة،

---

(١) البخاري كتاب الزكاة – باب الصدقة باليمين (٣/ ٢٢٧).

(٢) البخاري كتاب الزكاة – باب قول الله تعالى ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (٢ /١٢٥)، مسلم كتاب الزكاة – باب كراهية المسألة للناسي (٧/ ٩٦).

(٣) فتح الباري (٣/ ٣٣٦).

(٤) دعاوة المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٣٩ – ٤٤١) بتصرف.

(٥) أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم (٦٥٥)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٦٧)، مكتبة ابن تيمية ط٢، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٥٥) ط دار القبلة، وقال الهيثمي في المجمع: (١٠/ ١٣٢) ط مكتبة القدسي: فيه معروف بن حسان وهو ضعيف وفيه انقطاع.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٧، ٨٥٠، ٨٥٣)، إغاثة اللهفان (١/ ١٩٤ – ١٩٧).

(٧) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي (٢/ ٥٣ – ٥٤).

وتوعد من تركه استكباراً بدخول جهنم ذليلاً حقيراً، ولعظم شأنه سماه الله ﷻ صلاة، كما في قوله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] وسماه ديناً كما في قوله: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف ٤٠]، ويقول الرسول ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[١]، يقول الخطابي – يرحمه الله –: (ومعنى الدعاء استدعاء العبد ربه ﷻ العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشهاد الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله ﷻ وإضافة الجود والكرم إليه، ولذلك قال الرسول ﷺ: (الدعاء هو العبادة)، وقوله: (الدعاء هو العبادة معناه: أنه معظم العبادة أو أفضل العبادة)[٢]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله –: (ولفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا، الدعاء بمعنى العبادة، أو الدعاء بمعنى المسألة، وإن كان كل منها يستلزم الآخر، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته وتفريج كرباته، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة ثم يكون في أول الأمر قصده وحصول ذلك المطلوب من النصر والرزق والعافية مطلقاً، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله ﷻ ومعرفته، ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو احب إليه وأعظم قدراً عنده من تلك الحاجة التي أهمته، وهذا من رحمة الله بعباده يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية)[٣]، ومع ذلك نجد أن بعض أهل الأهواء والبدع يتجرؤون ويقولون: يجب على العبد ألا يدعو الله ولا يسأله شيئاً لأن ذلك ينافي علم الله ﷻ في زعمهم، فيقولون ويرددون هذه العبارة (حسبي من سؤالي علمه بحالي) أو (علمك بحالي غني عني وعن وسؤالي)، حتى يؤكدوا على عدم مشروعية الدعاء، لأن الله ﷻ يعلم ما في النفس وبالتالي يعطيهم ما يريدون دون أن يسأل أحدهم أو يدعو، وهذه العبارة فيها عدد من المحاذير ومنها ما يأتي:

١. إن عدم الدعاء فيه معصية لله ﷻ حيث إن الدعاء طاعة لله وامتثال لأمره ﷻ قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فالداعي مستجيب لأمره مطيع له، وأما الذي يتوقف عن الدعاء يصبح عاصياً له ﷻ.
٢. عدم الدعاء من العبد يزرع الكبر في نفسه والدعاء يسلم صاحبه من الغرور والكبر يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، يقول الإمام الشوكاني – يرحمه الله – عن هذه الآية: (والآية الكريمة دلت على أن الدعاء من العبادة، فإنه ﷻ أمر عباده أن يدعوه ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك عبادة الرب ﷻ استكبار، ولا أقبح من هذا

(١) أبو داود في كتاب الوتر رقم (١٤٨١)، والترمذي في أبواب تفسير القرآن (٢٩٦٩) وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود رقم (١٣٢٩).
(٢) شأن الدعاء (٥٠٤).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٨٧) مكتبة الرشد.

الاستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق له ورازقه، وموجده من العدم، وخالق العالم كله، ورازقه، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه؟ فلا شك أن هذا الاستكبار طرف من الجنون وشعبة من كفران النعم)[١].

٣. المتوقف عن الدعاء ليس متوكلاً على الله ﷻ، فالدعاء دليل على التوكل على الله ﷻ، فسر التوكل على الله ﷻ وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، وأعظم ما يتجلى التوكل حال الدعاء، ذلك أن الداعي حال دعائه مستعين بالله، مفوض أمره إليه وحده دون من سواه، ثم إن التوكل لا يتحقق إلا بالقيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصلح توكله، والدعاء من أعظم هذه الأسباب إن لم يكن أعظمها.

٤. ترك الدعاء يؤدي إلى ضعف الهمة، فبالدعاء تكبر النفس وتشرف، وتعلو الهمة وتتسامى، ذلك أن الداعي يأوي إلى ركن شديد، ينزل به حاجاته، ويستعين به في كافة أموره، وبهذا يقطع الطمع مما في أيدي الخلق، فيتخلص من أسرهم، ويتحرر من رقهم، وبالدعاء يسلم من ذلك كله، فيظل مهيب الجناب، موفور الكرامة وهذا رأس الفلاح، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله –: (وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته – قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له – فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه)[٢].

٥. ترك الدعاء يؤدي لنزول البلاء، فالدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: (لا يرد القضاء إلا الدعاء)[٣]، يقول الإمام الشوكاني – يرحمه الله –: (والأصل أن الدعاء من قدر الله ﷻ فقد يقضي على عبده قضاءً مقيداً بأن لا يدعوه فإذا دعاه اندفع عنه)[٤].

٦. أن من يترك الدعاء يزعم ان الله يعلم بحاله فلا يدعوه فيجعل نفسه أفضل من الأنبياء والمرسلين، وهذا ما يعتقده بعض أهل التصوف حيث يقولون: (سؤالك منه – يعني الله ﷻ – اتهام له) يقول الشيخ الألباني – يرحمه الله –: (وهذه ضلالة كبرى! فهل كان الأنبياء – صلوات الله عليهم – متهمين لربهم حين سألوه مختلف الأسئلة)[٥]، ويقول شيخ الإسلام – يرحمه الله –: (وأما قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي – فكلام باطل، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم لله، ومسألتهم إياه، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة)[٦]، ويقول الإمام الألباني – يرحمه الله – عن هذا القول: (لا أصل له أورده بعضهم من قول إبراهيم – عليه

---

(١) تحفة الذاكرين (٢٨).
(٢) العبودية (٩٤ – ٩٥).
(٣) أبو داوود في السنة – باب القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (٢١٥٥).
(٤) تحفة الذاكرين (٣٠).
(٥) سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٢٩).
(٦) الفتاوى (٨/ ٥٣٩).

الصلاة والسلام – وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع)[1]، فدل على بطلان هذا القول ووجوب الابتعاد عنه وعدم التلفظ به.

وقد وضح شيخ الإسلام – يرحمه الله – أن العلاقة بين الدعاء والقدر هي السببية، فالدعاء سبب لنيل المطلوب المدعو به، وليس وجوده كعدمه، ولا هو علاقة محضة، ولا تعبد محض، وأن هذا هو ما دل عليه الكتاب والسنة وانفقت عليه جماهير بني آدم)[2]، فوضح أن الدعاء من قضاء الله ﷻ وقدره كسائر الأسباب التي جعلها الله ﷻ لازمة لمسبباتها، متى وجُد السبب وجُد المسبب بحسب سنة الله ﷻ، وكل شيء بقدر الله ﷻ، ففي علم الله أن فلاناً يدعو فيرفع بدعائه كذا وكذا من البلاء، أو يحدث له كذا وكذا من الخير بسبب دعائه، وكل ثابت في علم الله ﷻ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – يرحمه الله – في بيان ذلك: (لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي تنال بها مغفرته ورحمته وهداه ورزقه، وإذا قَّدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدَّره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات)[3]، وبذلك يظهر مذهب أهل السنة والجماعة واعتقادهم بفائدة الدعاء، بخلاف الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة في باب القضاء والقدر، فعندهم أن الدعاء هو عبادة محضة أو علامة محضة وليس له فائدة حقيقية سواءً في ذلك من أثبت القدر من الجبرية، ومن نفاه من القدرية، وسواءً في ذلك ما تعلق بالدنيا أو الدين، والدعاء عند المخالفين لأهل السنة والجماعة جميعاً ليس له فائدة ولا أثر، وبذلك يتضح خطأ من قال إن المقدر والقدر من الأشاعرة لا يتغير أبداً[4] واستدلوا بقول الرسول ﷺ: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقه... ثم يبعث الله ملكاً ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد)[5] والصحيح أن القضاء والقدر نوعان: سابق ولاحق، فالسابق ما في علم الله ﷻ وما كُتب في اللوح المحفوظ على وفق ما في علم الله ﷻ، فهذا لا يقع فيه تغيير ولا تبديل ولا محو ولا إثبات، ويقال له القضاء المبرم أو المطلق، واللاحق: ما في علم الحفظة الموكلين بالآدمي من الملائكة وما كتب في صحفهم، فهذا الذي يقبل النسخ، ويقع فيه التغير والمحو والإثبات، ويقال له القضاء المعلق كما في قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: (من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه)[6]، فإن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، كأن يُقال للملك مثلاً: إن عمر فلان مائة مثلاً إن وصل رحمه وستون إن قطعها، وقد

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٨).

(٣) انظر المصدر السابق (٨/ ١٩٥ – ١٩٦).

(٤) رسالة الاحتجاج بالقدر (٢١ – ٢٣)، الفتاوى (٤/ ٤٤٨ – ٤٦٢).

(٥) البخاري كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة (٦/ ٢٢٠)، ومسلم في أول كتاب القدر – باب في كيفية خلق الأدمي رقم (٢٦٤٣).

(٦) مسلم في كتاب البر والصلة والآداب – باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤/ ١٩٨٢).

سبق في علم الله أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وبذلك يتضح الحق والبرهان في النصوص التي يبدو عليها التعارض.

المبحث الثاني: التوكل من صفات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والمؤمنين مع الأخذ بالأسباب وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التوكل من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين:

إن التوكل على الله ﷻ عبادة جليلة وعظيمة ولذلك اتصف بها الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – والمؤمنون:

١. يقول الله ﷻ عن الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ – ١٢٩] فهنا في هاتين الآيتين يمتن الله ﷻ على عباده ويذكرهم بإنه قد جاءكم أيها القوم، رسول عظيم القدر، رفيع الشأن، من جنسكم عربي قرشي، تعرفون حسبه ونسبه، يشق عليه ما يوقعكم في المكاره، حريص على نفعكم وهدايتكم، شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، فلم يجمع الله ﷻ بين اسمين من أسمائه إلا لخاتم الأنبياء محمد ﷺ (الرؤوف الرحيم) ثم وجه الخطاب للرسول ﷺ ليواسيه فيقول له: إن اعرضوا عن الإيمان برسالتك، واتباع هدايتك، فقل يكفيني الله وهو يدفع عني شركم، ووضح أنه لا معبود بحق سواه، اعتمدت عليه فلا أخاف ولا أرجو أحداً سواه، وهو ﷻ رب العرش العظيم الذي أحاط بالسماوات والأرض، وأحاط بكل شيء علماً، وفي هذه الآية إشارة بمقام الرسول ﷺ، وتعظيم شأنه حيث تولى الله ﷻ حفظه وحمايته من شر أعدائه المشركين، وكذلك المؤمن المتوكل على الله ﷻ يحفظه ويحميه مما يخافه ويحزنه[1]، حيث إن الله رب العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات، وإذا كان رب العرش العظيم الذي وسع المخلوقات، كان رباً ومدافعاً لما دونه من باب أولى وأحرى.

٢. يقول الله ﷻ للرسول ﷺ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] فهنا يوضح الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بأنه قد أرسله إلى قومه يدعوهم إلى الهدى كما أرسل الله ﷻ للأمم السابقة الرسل، فأنت لست ببدع من الرسل، حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول شيئاً من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً، وكان عليهم أن يقوموا بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، فلا يعتبرون بمن

---

(١) جامع البيان (٥/ ٤١٦٦)، التفسير الواضح الميسر (٥٠٠)، تيسير الكريم الرحمن (٣١٣).

خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يقول ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن التوحيدين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية فهو الله الرب الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي عليه توكلت في جميع أموري، وإليه أرجع في جميع عباداتي وحاجاتي(١)، فاتضح مدى توكل الرسول ﷺ على ربه في أموره كلها.

٣. يقول الله ﷻ في شأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] أي قد كانت لكم يا معشر المؤمنين قدوة حسنة في أبي الأنبياء إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –، وفي أتباعه المؤمنين، حين قالوا لقومهم المشركين: أنا متبرئون منكم ومما تعبدون من الأصنام والأوثان، ولقد قطعنا صلتنا بكم وكفرنا بدينكم، وظهرت بينا وبينكم العداوة والبغضاء أبد الدهر ما دمتم على الكفر والضلال حتى تعبدوا الله وحده، وتتركوا عبادة الأصنام والأوثان فتنقلب العداوة إلى صداقة، والبغضاء إلى محبة، ثم يأمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم إلا في استغفاره لأبيه، فلا تقتدوا به في ذلك، فإن استغفاره لأبيه المشرك، كان عن موعدة وعدها إياه، ولما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، مع أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – قال لأبيه: لا أستطيع أن أدفع عنك شيئاً من عذاب إن لم تؤمن، ثم وضح الله ﷻ أن يقولوا في دعائهم كما قال إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – وأصحابه: يا ربنا عليك اعتمدنا في جميع أمورنا، وإليك رجعنا وتبنا، وإليك وحدك المرجع والمعاد في الآخرة فإبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ترك القريب والبعيد وتوكل على الله وحده ليقينه بأنه نعم المولى ونعم النصير(٢).

٤. ومن الأنبياء الذين ذكرهم الله ﷻ في القرآن الكريم شعيب – عليه الصلاة والسلام –، يقول الله ﷻ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، فالآية توضح رد شعيب لقومه بعد أن قالوا له: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجكم من قريتنا، فكان الرد منه – عليه الصلاة والسلام –: أي أشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعدما أنجانا الله منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون، مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء، ممن جعل لله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد

(١) جامع البيان (٦/ ٤٧٣٥ – ٤٧٣٧)، تيسير الكريم الرحمن (٣٧٢ – ٣٧٣)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٥٧)، التفسير الواضح (٦١٩).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/ ٣٠٣)، جامع البيان (١٠/ ٧٩٩٠ – ٧٩٩١)، تفسير الكريم الرحمن (٧٩٣ – ٣٩٤).

ولم يولد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً له في الملك، وأنه يمتنع على مثلنا أن نعود فيها إن هذا من المحال، فآيسهم – عليه الصلاة والسلام – من كونه يوافقهم من وجوه متعددة من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون، ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها، وأما من حيث مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، أي فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه، ثم وضح لهم بأنهم توكلوا واعتمدوا على الله وهو قادر على أن يثبتهم على الصراط المستقيم، وأن يعصمهم من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه ويسر له أمر دينه ودنياه[١].

٥. وجاء في حق شعيب – عليه الصلاة والسلام – أيضاً قول الله ﷻ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فالآية توضح الحوار بين شعيب – عليه الصلاة والسلام – وقومه، فوضح لهم أنه على يقين وطمأنينة في صحة ما جاء به، وأن الله أعطاه من أصناف المال، وأنه لا يريد أن ينهاهم عن البخس في المكيال والميزان ثم يفعل هو ذلك حتى تتطرق إليه التهمة في ذلك، بل ينهاهم عن أمر هو أول مبتدر لتركه، وأنه لا يريد إلا أن يصلح أحوالهم، وتستقيم منافعهم، وليس له من قصد ذلك شيئاً إلا الإصلاح، ولما كان هذا فيه نوع من تزكية النفس دفع هذا بأن ما يحصل له من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر من الله وحده، لا بحوله ولا قوته، ثم بيَّن أنه يتوكل ويعتمد على الله في جميع أموره لثقته في كفايته وحمايته ومساعدته، وأنه سوف ينيب في أداء ما أمره به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال الله ﷻ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥][٢].

٦. ومن الأنبياء الذين توكلوا على الله ﷻ في أشد المواقف وأصعبها هود – عليه الصلاة والسلام – يقول الله ﷻ: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٥ – ٥٦]، توضح الآيتان موقف هود – عليه الصلاة والسلام – بعد أن اتهمه قومه بأن

(١) تفسير أبي حاتم (٥/ ١٥٢٢ – ١٥٢٣)، جامع البيان (٥/ ٣٥٧٣ – ٣٥٧٤)، تيسير الكريم المنان (٢٩٦).

(٢) زاد المسير (٤/ ١٥٠)، النكت والعيون (٢/ ٤٩٦)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٦١)، جامع البيان (٦/ ٤٤٨ – ٤٤٩).

آلهتهم أصابته بالجنون، فاختلط عقله وأصابه هذا الأمر، فقال لهم: فاحتالوا جميعاً وآلهتكم في ضري ومكروهي، ثم لا تؤخروا ذلك فانظروا هل تنالونني أنتم وهم بما زعمتم أن آلهتكم نالتني بالسوء، ثم قال لهم: إني توكلت على الله الذي هو مالكي ومالككم والقيم على جميع خلقه، من أن تصيبوني أنتم وغيركم من الخلق بسوء، فإنه ليس من شيء يدب على الأرض إلا والله مالكه وهو في قبضته وسلطانه ذليل له خاضع، وإن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً منهم شيئاً ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان(١).

٧. ومن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – الذين توكلوا على الله ﷻ يعقوب – عليه الصلاة والسلام – يقول الله ﷻ: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٦ – ٦٧] إن الآيتين تذكران أن يعقوب – عليه الصلاة والسلام – لم يوافق ابناءه أن يأخذوا أخاهم حتى يعطوه موثقاً من الله بمعنى الميثاق أن يأتوه به ولا يفعلوا مثل ما فعلوا بيوسف إلا أن يحاط بجميعهم مالا يقدرون معه على أن لا يأتوا به، فلما أعطوه العهد، قال يعقوب – عليه الصلاة والسلام – ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو شهيد علينا بالوفاء بما نقول، فالوكيل هو من يتوكل عليه فيفوض الأمور إليه ليأتي بالخير ويدفع الشر، وهذا لا يصح إلا لله وحده – جلَّ وعلا –، فلا نافع ولا ضار إلا هو(٢)، ثم طلب من أبنائه أن يدخلوا من أبواب متفرقة لأنهم كانوا رجالاً لهم جمال وهيئة، فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعة من طريق واحد، وهم ولد رجل واحد، ووضح لهم أنه لا يقدر أن يدفع عنهم قضاء الله الذي قد قضاه من شيء صغير ولا كبير، لأن قضاءه نافذ في خلقه، وما القضاء والحكم إلا لله دون سواه من الأشياء، فإنه يحكم في خلقه بما شاء فينفذ فيهم حكمه، ويقضي فيهم ولا يرد قضاؤه، ووضح لهم أنه على الله يتوكل، ولذلك يثق بهم وفي حفظهم لأخيهم حتى يعودوا إليه سالمين معافين، وبأنه توكل على الله فهو الذي يحفظهم ويرعاهم وليس بسبب دخولهم من أبواب متفرقة، ولذلك فليتوكل المتوكلون على الله ﷻ وحده، ويفوضوا أمورهم إليه فينالون السعادة والتوفيق والراحة(٣).

٨. ولقد ذكر الله ﷻ أن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – جميعهم يتوكلون عليه ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] يخبر الله ﷻ عن قول الرسل – عليهم الصلاة والسلام – لأممهم أنهم قالوا: ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا فنحن

---

(١) تفسير مجاهد (٣٨٩)، زاد المسير (٤/ ١١٠١)، النكت والعيون (٢/ ٤٧٨)، معالم التنزيل (٣/ ٣٠٢).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٠٢)، جامع البيان (٦/ ٤٥٧٨).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٠٢)، زاد المسير (٤/ ٢٥٣)، جامع البيان (٦/ ٤٥٧٨).

نثق به وبكفايته ودفاعه إياكم عنا، وقد بصَّرنا طريق النجاة من عذابه فبين لنا، ولذلك فإننا سنصبر على ما نلقى منكم من المكروه، بسبب دعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه من البراءة من الأوثان والأصنام وإخلاص العبادة له، وعلى الله فليتوكل من كان به واثقاً من خلقه، فأما من كان به كافراً فإن وليه الشيطان[1]، وقد ذكر الله ﷻ أن المؤمنين يتوكلون على الله في جميع أمورهم فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] فالمؤمن يثق بالله ﷻ ويؤمن به ويطيعه، وبذلك يكفيه الله شرور الدنيا والآخرة، يقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] يخبرنا الله ﷻ أن المؤمنين يثقون في الله ﷻ فيلقون همومهم وأحزانهم إليه، ويستسلمون لقضائه وقدره، ويثقون بنصره وعونه، فهم المقرون بوحدانية الله ورسالة رسوله ﷺ، العاملون بأمره ونهيه، وذلك من تمام دينهم وتمام إيمانهم، وأنهم إذا فعلوا ذلك كلأهم ورعاهم وحفظهم ممن أرادهم بسوء، كما دافع عن المؤمنين من اليهود الذين هموا به من بسط أيديهم إليهم كلاءة منه لهم، وإذا كان العبد من أهل الإيمان بالله وبرسوله ﷺ دون غيرهما، فإن غير الله ﷻ لا يطيق دفع سوء أراده الله بهم، ولا اجتلاب نفع لهم يقضه ﷻ لهم[2].

٩. ويقول الله ﷻ عن المؤمنين أيضاً ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] يوضح الله ﷻ في هذه الآية بعض صفات المؤمنين بأنهم لا يخالفون الله ورسوله ﷺ، ويتركون اتباع ما أنزله في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، فالمؤمن هو الذي إذا ذُكر الله وجل قلبه وانقاد لأمره، وخضع لذكره خوفاً منه، وفرقاً من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدَّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً، وذلك هو زيادة ما تُلي عليه من آيات الله، والمؤمن يوقن في أن قضاءه فيه ماض فلا يرجو غيره ولا يرهب سواه[3]، وبذلك يتضح أهمية التوكل للعبد المؤمن في جميع الأوقات، وقت الحرب والسلم، والصحة والمرض، والصغر والكبر، والسعادة والشقاء، لذا فإن المريض إذا توكل على الله ﷻ حق التوكل، وأخذ بالأسباب المادية فسوف يجد الراحة والطمأنينة، ويفوز برضا الله ﷻ ومحبته ﷻ.

المطلب الثاني: الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:

إن التوكل الصحيح أن يثق العبد بالله ﷻ ويأخذ بالأسباب المشروعة والأسباب التي تساعده لقضاء الأمر الذي يسعى لتحقيقه، ولذلك من أول الأسباب التي على المريض أن يأخذ بها التداوي والعلاج، لأن الله ﷻ ما خلق من داء إلا

(١) زاد المسير (٤/ ١١٨)، تفسير مجاهد (٣٨٩)، تفسير أبي حاتم (٦/ ٢٠٤٦)، الجامع لأحكام القرآن (٥١)، الدر المنثور (٣/ ٣٣٧).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٥٩٥)، النكت والعيون (٣/ ٢٩٤)، جامع البيان (٥/ ٣٧٦٨ – ٣٧٦٩).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٣٣٢)، المحرر الوجيز (١/ ١٦٧)، جامع البيان (٤/ ٢٧٧٦ – ٢٧٧٧).

وخلق له الدواء إلا الموت، ويتضح بذلك خطأ بعض أهل الأهواء والبدع كالصوفية الذين يستدلون بحديث الرسول ﷺ: (عُرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر مع النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: لم؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم أجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر: قال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة)[١]، ويقولون يجب على المريض ألا يحاول العلاج وطلب الدواء، ويزعمون أن ذلك من باب التوكل الصحيح، وهذا خلاف السنة النبوية، فعن عائشة – رضي الله عنها – قال: (كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: باسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين)[٢]، فالأحاديث التي وضحت أن سبعين ألفاً من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لا يسترقون فقد يظن أحد أن هذا الحديث مخالف للأمر والواقع أنه لا يوجد أي خلاف، يقول النووي – يرحمه الله –: (فالمدح في ترك الرقى المراد بها الرقى التي هي من كلام الكفار والرقى المجهولة والرقى بغير العربية ومالا يعرف معناها فهذه مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه، وأما الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة، ومنهم من قال في الجمع بين الحديثين أن المدح في ترك الرقى للأفضلية وبيان التوكل والذي فعل الرقى وأذن فيها لبيان الجواز مع أن تركها أفضل، وبهذا قال ابن عبد البر وحكاه عمن حكاه، والمختار الأول وقد نقلوا الإجماع على جواز الرقى بآيات وأذكار الله ﷻ)[٣]، وبذلك يتضح أن المتوكل الحقيقي يثق بالله ﷻ وحده بأنه يكفيه ويأخذ بالأسباب المشروعة، أما ما نجده من بعض أهل الأهواء والبدع الذين يخترعون بدعاً معينة ويزعمون أنها بدعة حسنة معتمدين على تعريف عز الدين بن عبد السلام – يرحمه الله – الذي عرَّف البدعة بقوله: (البدعة فعل مالم يُعهد في عصر رسول الله ﷺ وهي منقسمة إلى بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة)[٤]، وقد أخذ بهذا التعريف طائفة من بعده كالزركشي والنووي والهيتمي والسخاوي ومحمد علوي مالكي وهو تعريف باطل لا أساس له من الصحة، حيث لا توجد بدعة واجبة ولا مندوبة بل إن البدع كلها محرمة[٥]، فالبدعة عندهم أن تُعرض على قواعد الشريعة، فإن دخلت في الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة، فتعريف عز الدين بن عبد السلام – يرحمه الله – لا يؤخذ به، لكونه

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق – باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٨/ ١١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان – باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٢/ ٣٢٧).

(٢) مسلم كتاب السلام – باب الطب والرقي (١٤/ ١٤١– ١٤٢).

(٣) شرح النووي (١٤/ ١٤٣).

(٤) قواعد الأحكام (٢/ ١٧٢).

(٥) الفتاوى الحديثية للهيتمي (١٥٠)، فتح المغيث (٢/ ٣٢٧)، المنثور في القواعد (١/ ٢١٧)، مفاهيم يجب أن تصحح (١٠٤ – ١٠٥).

صار عمدة لأهل الأهواء والبدع الذين يرون أن في البدع ما هو حسن ومقبول، والصحيح أن البدع في الدين كلها مذمومة، فلا يوجد بدعة حسنة كما يزعم محسِّنو البدع، لكونها مصادمة للشريعة الإسلامية مضادة لها، فهي مكروهة على كل حال، ولذا جاءت تعريفات السلف الصالح بتوضيح هذا الجانب المهم(١).

ومن البدع التي قد تنتشر وقت الأوبئة والبلاء أن بعض أهل الأهواء والبدع يعتقدون أن لبعض الناس قدرة خارقة وكرامة نافعة حتى أنهم إذا قالوا للشيء كن فيكون، ويزعمون أن هذه القدرات والكرامات قد ورَّثها الرسول ﷺ لبعض أصحابه واتباعه، وأنه يعطي من قدراته من يشاء من العباد من الأولياء كالتصرف بكلمة كن، ويزعمون على معتقدهم هذا بحديث الرسول ﷺ: (أنه عندما رأى رجلاً عن بُعد في غزوة تبوك فقال له: كن أبا خيثمة)(٢) فلذا نجد بعض أهل الأهواء والبدع يعتقدون في بعض شيوخهم النفع والضر، والإحياء والإماتة حتى يقول أحد هؤلاء الشيوخ وهو إبراهيم نياس يعدد خصوصياته

وقد خصني الله بالعلم والتصريف   إن قلت كن يكن بلا تسويف

لكنني اتخذته وكيلاً   تأدبًّاً واختارني خليلاً(٣)

فهو يزعم أنه ترك التصرف بكلمة كن لله ﷻ ليتصرف بها أدباً حتى يكون مطبقاً لقول الله ﷻ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] فانظر إلى الشرك المخرج من الدين الإسلامي الذي يستحق صاحبه الخلود في النار، فالصحيح أن الاستدلال بحديث الرسول ﷺ: (كن أبا خيثمة) ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه، وهو إعطاء الشخص القدرة على أن يقول للشيء الذي يريده كن فيكون، فإن ذلك الرجل لم يكن غير أبي خيثمة، قبل قوله ﷺ: (كن فلاناً) فغاية ما في الأمر أنه تمنى أن يكون ذلك الشخص القادم أبا خيثمة فجاء موافقاً لأمنيته، وإن المتتبع لسيرة الرسول ﷺ لم يجده يقول لكل ما يريد كن فيكون، بل لما أشتد أذى المشركين عليه وعلى المسلمين رفع صوته بالدعاء عليهم، ولا يخفى على عاقل أنه لو كان ﷺ يملك (كن فيكون) لاكتفى بقوله لهم: موتوا فيموتون، فبذلك يتضح أن الاعتقاد بأن أحداً من البشر يستطيع أن يشفي أو يعالج المريض بقدرته مجرد كذب وافتراء وبهتان.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٥٥)، الاستقامة (١/ ١٤٢).

(٢) الحديث رواه ابن إسحاق عن ابن مسعود في خبر مسيرته ﷺ إلى تبوك وفيه: (ونظر ناظر فقال: إن هذا الرجل يمشي على الطريق فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا ذر) فلما تأمله القوم قالوا: هذا والله أبا ذر) والحديث في السيرة النبوية (٢/ ٥٢٤)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦) وإسناده ضعيف لضعف بريدة بن سفيان، ضعَّفه البخاري، وأحمد، والنسائي، والدار قطني. انظر الضعفاء والمتركون ترجمة (٨٩)، والميزان (١/ ٣٠٦)، والمغني ترجمة (٨٧١)، والتهذيب (١/ ٤٤٣)، وذكر الحافظ هذا الحديث في الإصابة (٧/ ٦٠) وضعَّفه، ولكن صح قوله ﷺ لأبي خيثمة الأنصاري في غزوة تبوك: (كن أبا خيثمة) رواه مسلم في كتاب التوبة – باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/ ٢١٢٢).

(٣) الجواهر والدرر (١٢٣ – ١٢٤)، جواهر المعاني (٢/ ٧٦ – ٧٧).

ومن البدع التي يتخذها بعض أهل الأهواء والبدع أنهم يعتقدون باستحباب بعض العبادات كالصلاة وقت الضيق والحرج والمرض، ويقولون إن الرسول ﷺ قال: (جعلت قرة عيني في الصلاة)[١] (أرحنا بها يا بلال)[٢]، فيبتدعون صلوات معينة ومنها ما يسمى بصلاة الكفاية وهي عبارة عن ركعتين تُصلى في أي وقت كان ويقرأ المصلي في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة الصمد عشر مرات و: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] خمسين مرة، بل يتجرأ بعضهم فيزعم أنه قد ورد حديث عن الرسول ﷺ، وهو كذب وافتراء، وهذا ما وضحه علماء أهل السنة والجماعة، ومنهم أبو شامة فقال: (وهي صلاة لم يأت فيها خبر ولا أثر إلا ضعيف أو موضوع)[٣]، ويقول ابن القيم – يرحمه الله –: (والعجب ممن شم رائحة العلم بالسنة أن يغتر بمثل هذا الهذيان ويصليها، وهذه الصلاة وضعت في الإسلام بعد الأربعمائة)[٤]، فهذه صلاة بدعية لا أساس لها من الصحة، فالتقرب والثقة والتوكل على الله ﷻ ليس طريقه الابتداع في الدين كما بين الرسول ﷺ: (إن كل بدعة ضلالة)[٥]، (وكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)[٦]، وبذلك يتضح مذهب أهل السنة والجماعة الذين يثقون بالله ﷻ ويتوكلون عليه مع الأخذ بالأسباب المشروعة، حيث إن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ﷻ، ومن أهم الأسباب المشروعة طلب العلاج والدواء، حيث إن الرسول ﷺ حث على طلب العلاج والشفاء والعلاج فقال: (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء)[٧]، بل بلغ من اهتمام الرسول ﷺ من طلب العلاج والشفاء أنه يسمح للنساء بالخروج معه في الغزوات حتى يطببن الجرحى، تقول: ربيع بنت معوذ بن عفراء – رضي الله عنها –: (كنا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقي القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة)[٨]، فالتداوي والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل إطلاقاً، فقط يعتقد المريض أن الشفاء ونجاحه بقدرة الله ﷻ، وبذلك فإن التداوي لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار، وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ، فعن عائشة – رضي الله عنها –: (أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات)[٩]، وتقول أيضاً: (أمرني النبي ﷺ أو أمر أن يُسترقى من العين)[١٠]، يقول ابن حجر – يرحمه الله – : (فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي أن صادف البدن لا وقاية له أثر فيه، والألم ينفذ السهم، بل ربما رد على صاحبه

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٤٢٠) رقم (١٠١٢)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٨٥٩) رقم (٣٢٩١).

(٢) سنن أبي داوود كتاب الآداب – باب في صلاة العتمة (٤/ ٢٩٦) رقم (٤٩٨٥)، والألباني في جميع صحيح الجامع الصغير وزياداته (٢/ ١٣٠٧) رقم (٧٨٩٢).

(٣) الباعث الحثيث على إنكار البدع والحوادث (١٢٤).

(٤) المنار المنيف (١٧٥).

(٥) مسلم كتاب الجمعة – باب خطبته ﷺ في الجمعة (٦/ ١٥٣).

(٦) البخاري في كتاب البيوع – باب النجش (٤/ ١٠٥).

(٧) البخاري كتاب الطب – باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء (١٠/ ١١).

(٨) البخاري كتاب الطب – باب هل يداوي الرجل المرأة والمرأة الرجل (١٠/ ١١١).

(٩) سبق تخريجه.

(١٠) البخاري في كتاب الطب – باب الرقى بالقرآن والمعوذات (١٠/ ١٦٤).

كالسهم الحسي سواء)[١]، فهنا يوضح لنا الرسول ﷺ الأخذ بالأسباب المشروعة قبل الإصابة بالمرض، فما بالك بعدها، وهذا ما فعله ﷺ مع الجارية، تقول أم سلمة – رضي الله عنها –: (أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة[٢]، فقال: استرقوا لها إن بها النظرة)[٣]، فالحديث يوضح أن الرسول ﷺ أمر بالاسترقاء لها، وهو دال على مشروعية الرقية ولو دقق العبد في أحاديث الرسول ﷺ لوجد عدداً كبيراً من الأحاديث التي تدل على العلاج والاستشفاء من الأمراض، مع التوكل على الله ﷻ والثقة به، وعدم الاعتقاد بأن العلاج هو الذي يشفي المرض، بل إن ذلك كله بقدر الله وعظمته، ومن أهم الأسباب الشرعية الدعاء من الله ﷻ برفع الداء والبلاء، فالدعاء تحقيق للتوحيد الخالص الذي هو أعظم مأمور، وأجل مقصود، وغاية خلق لأجلها الإنس والجن، وهو من أعظم الأسباب في حصول المطلوب الدنيوي والأخروي، ويجلب الراحة القلبية والسعادة والطمأنينة للعبد الداعي، حيث جمع قلبه على مقصود واحد، ولم يشتت قلبه، ويصرف نظره لغيره ﷻ، وهو يجلب أنواعاً من العبادات كالتوكل، والخضوع، والذلة، والمحبة، والاستكانة، ونحوها وفي ذلك الفوز العظيم، والثواب الجزيل، لذا قد يكون المرض أو الوباء من رحمة الله بعباده، حتى يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية[٤]، وبذلك يظهر نقاء وصفاء معتقد أهل السنة والجماعة فهم يتوكلون على الله ويثقون به، ويأخذون بالأسباب المشروعة، فينالون السعادة الدنيوية والأخروية.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٦٣).

(٢) سفعة: أي سواد في الوجه، أو حمرة يعلوها سواد، وقيل صفرة. انظر فتح الباري (١٠/ ١٦٥).

(٣) البخاري في كتاب الطب – باب الرقى بالقرآن والمعوذات (١٠/ ١٦٥).

(٤) القول السديد للسعدي ضمن المجموعة الكاملة (٣/ ٢٢)، شأن الدعاء (٦).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتُرفع الدرجات، وتُجبر العثرات، وتُمحى الزلات، وتُضاعف الحسنات وبعد: فقد منَّ الله ﷻ عليَّ باستكمال هذا البحث وقد توصلت من خلاله إلى عدد من الأمور منها

١. إن الوباء غير الطاعون، بل هو أعم منه، وإن أخذ حكمه إقداماً وإحجاماً.

٢. التوكل على الله ﷻ هو: تفويض الأمر إلى الله ﷻ والثقة به مع الأخذ بالأسباب.

٣. إن الأشاعرة والصوفية والجهمية لم يفرقوا بين المشيئة والإرادة.

٤. للتوكل أنواع:

أ. التوكل على الله ﷻ وهو من تمام الإيمان، وعلامات صدقه وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به.

ب. توكل السر بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة، أو دفع مضرة، فهذا شرك أكبر.

ج. التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته، وانحطاط مرتبة المتوكل عنه.

د. التوكل على الغير فيما يتصرف فيه المتوكل بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة.

٥. إن التوكل الحقيقي عند نزول الجوائح والأوبئة أن يقوم العبد بفعل الأسباب المؤدية للشفاء.

٦. إن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لسنة الرسول ﷺ.

٧. التوكل على الله ﷻ أعلى درجة من تفويض الأمر إليه.

٨. إن التوكل على الله مطلوب في كل شئون الحياة ومنها: عند نزول المصائب – عند إرادة العبد أن يكون الله وكيله في كل حال – إرادة محبة الله ﷻ – عند الشعور باليأس والشدة – عند إرادة معية الله ﷻ – عند طلب النصر والفرج – عند إعراض الناس عن العبد – وغير ذلك كثير.

٩. إن من فوائد التوكل على الله ﷻ: إن التوكل على الله ﷻ من كمال الإيمان وحُسْن الإسلام – يجلب محبة الله ﷻ – يدفع العبد إلى دوام طلب المعونة من الله – يقين المتوكل بالعجز التام عن تحصيل ما يريد – التوكل على الله يحفظ العبد من الشيطان الرجيم – التوكل على الله ﷻ يجعل العبد يقف عند الحدود الشرعية – يحقق رضا الله ﷻ.

١٠. إن سؤال الخلق المعونة ينقسم إلى قسمين: الأول: سؤالهم في حياتهم على ما يقدرون عليه، الثاني: سؤال الخلق فيما لا يقدرون عليه مثل أن يطلب منهم الشفاء أو غفران الذنوب وغيرها فهذا من الشرك الأكبر.

١١. يزعم بعض أهل الأهواء والبدع إن على المريض عدم سؤال الله الشفاء، لأن ذلك في زعمهم ينافي التوكل على الله ﷻ.

١٢. خطأ الأشاعرة في معتقدهم أن المقدر والقدر لا يتغير، والصحيح أن الدعاء يرد القضاء.

١٣. إن الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – يتوكلون على الله ﷻ في جميع أمورهم، وكذلك المؤمنين.

١٤. إن التوكل الصحيح أن يثق العبد بالله ﷻ، وأن يأخذ بالأسباب المشروعة التي تساعده على قضاء الأمر الذي يسعى لتحقيقه.

التوصيات:

١. توجيه الدعوة إلى أهل الأهواء والبدع بالعودة إلى الصراط المستقيم عن طريق الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن.

٢. لابد من قوة العلم وقوة السلطان لقمع أهل البدع ودحرهم وخاصة في زمن الأوبئة والبلايا.

٣. تماسك أهل السنة والجماعة والبعد عن الخلافات والترهات، حتى يكونوا شوكة في حلوق أهل الأهواء والبدع.

٤. العمل عبر جسر النخبة الفكرية والثقافية لبيان الأخطار التي تهدد الأمة الإسلامية في حالة انتشار البدع.

٥. العمل على تماسك المنظمات الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامي للوقوف أمام أهل الأهواء والبدع.

٦. يجب العمل الجاد على إصلاح النظام الإسلامي ليكون أكثر اتساقاً مع متطلبات العصر المليئة بالبدع والخرافات والأهواء.

٧. تدريس المواد التي يحتاجها العصر برؤية شرعية مثل مادة فقه السيرة النبوية، وفقه الجماعة.

٨. تكاتف العلماء والفقهاء لتوحيد الجهود.

٩. استغلال المنابر العلمية لتوحيد الأهداف والأعمال.

١٠. إن على العلماء والخطباء والدعاة والأسر والهيئات الشرعية وولاة الأمر ورجال الأمن والمثقفين والكُتاب دوراً لجمع الشمل، وتوحيد الصف، وتأليف القلوب النافرة، والنصر على الأعداء، عن طريق الحوار البناء.

١١. التركيز على ربط الأجيال بمبادئهم الإسلامية الصحيحة وعقيدتهم الإيمانية، ومنهجهم الوسطي المعتدل بلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء[١].

---

(١) بحث في مؤتمر تحقيق الاجتماع وترك التحزب والافتراق لمختار.

المصادر والمراجع:

١. الاستقامة لابن تيمية – تحقيق الدكتور: محمد رشاد سالم – ط٢ – ١٤٠٩هـ.

٢. أسماء الله الحسنى للإمام ابن القيم – جمع وإعداد وتحقيق: عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية – القاهرة – مصر.

٣. أصول الدين البغدادي – مطبعة الدولة – استانبول – ط١.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن – محمد الأمين الشنقيطي – عالم الكتب.

٥. الأنوار النعمانية – نعمت الله الجزائري – تبريز – إيران.

٦. الباعث على إنكار البدع والحوادث – الإمام: عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم (المعروف بأبي شامة) – دراسة وتحقيق: عادل عبد المنعم – مكتبة الساعي – الرياض.

٧. بدائع الفوائد لابن القيم – مكتبة القاهرة – ط٢ – ١٣٩٢هـ.

٨. براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة – بكر عبد الله أبو زيد – دار الراية – الرياض – ط٣.

٩. التعريفات – علي بن محمد الشريف الجرجاني – مكتبة لبنان – بيروت.

١٠. تفسير القرآن العظيم – الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي – تقديم: عبد القادر الأرناؤوط – دار السلام – دار الفيحاء – الرياض – دمشق – ط١ – ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١١. التفسير القيم – الإمام ابن القيم – جمع: محمد بن إدريس الندوي – تحقيق: محمد حامد الفقي – مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٢. تفسير مجاهد – للإمام مجاهد بن جبر المكي – تحقيق: عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي – ط١ – ١٩٦٩م.

١٣. تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي – عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة – محمد أحمد لوح – دار ابن القيم – دار ابن عفان – القاهرة – ط١ – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

١٤. تلبيس إبليس – جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي – تحقيق الدكتور: السيد الجميلي – دار الكتاب العربي – بيروت.

١٥. تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر – دائرة المعارف النظامية – الهند – ١٣٢٥هـ.

١٦. تهذيب اللغة – أبو منصور الأزهري – تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين – القاهرة.

١٧. التوسل والوسيلة لابن تيمية – تحقيق: عبد الله بن دجين السهلي – دار الوطن – ط١.

١٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر السعدي – تقديم: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل والشيخ محمد الصالح العثيمين – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط٤ – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – إشراف وتقديم أ.د: عبد الحميد عبد المنعم مدكور – دار السلام – جمهورية مصر العربية – القاهرة – الإسكندرية – ط١ – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

٢٠. جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي – دار المعرفة – بيروت.

٢١. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي – لابن القيم الجوزية – القاهرة.

٢٢. حاشية الدسوقي على شرح الكبير – محمد بن عرفة الدسوقي – دار الفكر – بيروت.

٢٣. الحجة في بيان المحجة للأصفهاني – تحقيق الدكتور: محمد ربيع المدخلي – دار الراية – ط١ – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٢٤. الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي – تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد – دار ابن الجوزي – الأحساء – ط١.

٢٥. درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية – تحقيق: محمد رشاد سالم – دار الكنوز الأدبية.

٢٦. ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس من شعر الإمام محمد بن إدريس - تجميع وتدقيق وتعديل محمد إبراهيم سليم - مكتبة ابن سيناء للنشر والتوزيع والتصدير.

٢٧. ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين – عبد الله بن أسعد اليافعي – تحقيق الدكتور: موسى سليمان الدويش – دار البخاري – المدينة المنورة – ط١.

٢٨. الرد على شبهات المستعينين بغير الله – أحمد بن إبراهيم بن عيسى النجدي – عناية عبد السلام برجس.

٢٩. رسالة الشرك ومظاهره – مبارك محمد الميلي – مطابع الجامعة الإسلامية – المدينة – ١٤٠٧هـ.

٣٠. رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر – مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي – تحقيق: أسعد محمد المغربي – ط١.

٣١. زاد المسير في علم التفسير – عبد الرحمن بن الجوزي – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٤ – ١٤٠٧هـ.

٣٢. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء للشيخ الألباني – مكتبة المعارف – المكتب الإسلامي – الرياض.

٣٣. سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي – تحقيق: بشار عواد وغيره – مؤسسة الرسالة – بيروت.

٣٤. السيرة النبوية لابن هشام – تحقيق: مصطفى السقا وغيره – بيروت.

٣٥. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي – تحقيق: جماعة من العلماء – المكتب الإسلامي.

٣٦. شرح العقيدة الواسطية – الدكتور: صالح بن فوزان عبد الله الفوزان – مكتبة المعارف – الرياض.

٣٧. شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي – تأليف الشيخ: محمد بن صالح العثيمين – تحقيق: أشرف عبد المقصود بن عبد الرحيم – دار الاستقامة – القاهرة.

٣٨. الضعفاء والمتركون للإمام النسائي – تحقيق: محمود إبراهيم زايد – دار المعرفة – بيروت.

٣٩. الفتاوى الحديثية – أحمد شهاب الدين الملكي الهيتمي – دار المعرفة – بيروت.

٤٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني – دار الريان للتراث – القاهرة.

٤١. فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية في علم التفسير – محمد بن علي بن محمد الشوكاني – عالم الكتب.

٤٢. فتح المغيث شرح ألفية الحديث – محمد بن عبد الرحمن السخاوي – دار الكتب العلمية – بيروت.

٤٣. فتح رب البرية بتلخيص الحموية – الشيخ: محمد بن صالح العثيمين – دار الوطن – الرياض.

٤٤. الفقه الأكبر لأبي حنيفة – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٤هـ.

٤٥. الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة – عبد الرحمن عبد الخالق – خرج أحاديثه: محمد عيد العباسي – مكتبة ابن تيمية – الكويت – ط٣ – ١٤٠٦هـ.

٤٦. القول المفيد على كتاب التوحيد – شرح الشيخ: محمد بن صالح العثيمين جمع وتخريج الدكتور: سليمان بن عبد الله أبا الخيل والدكتور: خالد بن علي المشيقح – دار ابن الجوزي – دار العاصمة السعودية – ط١.

٤٧. اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة – عبد الرحمن السيوطي – دار المعرفة – بيروت.

٤٨. لسان العرب – محمد بن كرم بن منظور الأفريقي – دار الصادر – بيروت.

٤٩. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – الشيخ: محمد السفاريني الحنبلي – المكتب الإسلامي – دار الخاني – بيروت – الرياض.

٥٠. مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين – ابن القيم الجوزية – تحقيق وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي – دار الكتاب العربي – بيروت – ط١ – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٥١. معارج القبول بشرح سلم الوصول – الشيخ: حافظ بن أحمد حكمي – المطبعة السلفية – القاهرة.

٥٢. معالم التنزيل – الحسين بن مسعود البغوي – تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار – دار المعرفة – بيروت.

٥٣. المعجم الوسيط – لجنة مجمع اللغة العربية بمصر – تقديم: إبراهيم مصطفى وغيره – دار الدعوة.

٥٤. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار – عبد الرحيم بن الحسين العراقي – بهامش الأحياء – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٦هـ.

٥٥. مفاهيم يجب أن تصحح – محمد علوي المالكي الحسني – الأوقاف والشؤون الإسلامية – دبي – ط١ – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٥٦. المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق: محمد سيد الكيلاني – دارا لمعرفة.

٥٧. مقدمة التوحيد – لأبي حفص عمر بن جميع – المطبعة العربية – ط٢.

٥٨. المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية – تحقيق: أبو غدة – مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب.

٥٩. المنثور في القواعد – بدر الدين محمد الزركشي – تحقيق: فائق أحمد محمود – الكويت.

٦٠. الموسوعة العربية الميسرة – إشراف: محمد شفيق غربال – دار إحياء التراث العربي – ط دار الشعب.

٦١. الموضوعات – عبد الرحمن بن علي بن الجوزي – تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان – مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٦٢. ميزان الاعتدال في نقد الرجال – الحافظ الذهبي – تحقيق: علي البجادي – دار المعرفة – بيروت.

٦٣. النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين – محمد بن ناصر آل معمر – تحقيق: عبد السلام بن برجس – دار العاصمة – الرياض.

٦٤. النهاية في غريب الحديث – المبارك بن محمد بن الأثير – دار الفكر – بيروت.

المحتويات